

# مولد شاعر

فتح الغلام عينه (١) على بيت ناغم . . . وكان صاحب البيت جميل للصوت عذب الغناء . وكانت بيته الذي يقع في حي الناصرية ، درب جنينه ( مندرة ) لا تخلو من عازف أو مغن من أصدقائه هواة الموسيقى ، ومنهم موسى صادق ، عازف العود الشهير ، و « محمود فخري » و « إبراهيم الدهان » .

وكانت الأنغام الحنون تأخذ مسراها إلى مهد الغلام الوليد ، فينصت أحمد من بكاء ، وترقى إلى حجرة الصبي الدارج فيهرب من سن . . . لقد كان صغيراً طروباً . . . وكأن الطبيعة تعرف أن الطرب بعض وسائله شاعراً . . . وتجاوز الصغير سنى الطفولة الأولى إلى الحداثة ، فاصطحبه والده للطبيب في سفره إلى جزيرة طشيوز (٢) ، وكان ذلك عام ١٨٩٩ .

وفتنت الطبيعة في طشيوز الغلام الواعد ، فأحبها وسحر بها ، فكان يرتع في مسارجها ، ولكن ذاكرته لم تلتئم يوماً مثله ، بل كانت تدخر الألوان والأشكال والصور . . .

ودقت للرحيل إلى مصر أجراس ارتاع لها الغلام السارح في الغياض ، الهائم في الرياض ، القرير الناعم بما هو فيه ، المرتاح الجذلان بما صار إليه . . . وعبثاً حاول إرجاء السفر . . .

وودع الجزيرة سنة ١٩٠١ بعد أن مكث بها سنتين ، وودع عهد الجرى واللهو ، وعاد إلى مصر ليلتحق بالمدرسة . . . وواصل أبوه أسفاره بعد أن عهد به إلى عمته . . . وكان زوجها يقيم في حي الإمام الشافعي ، فعاش الصغير بعد طشيوز بمناظرها ، بين المقابر ، فتحول مرحه وزياطه إلى صمت أقرب إلى الكآبة منه إلى السكون . . . واستوحشت

(١) ولد أحمد رامى في أغسطس سنة ١٨٩٢ .

(٢) جزيرة طشيوز Thasos إحدى جزر بحر إيجه ، وهي على مسيرة

٦ ساعات بالمركب الشراعى من مدينة ( قوله ) مسقط رأس محمد على .

نفسه بعد فراق أبويه وحشة لم يبددها أنس مكان أو ضجيج حضر . . .  
كان أحمد في هذا الوقت قد نسي العربية تقريباً بعد أن أخذ يتكلم  
التركية واليونانية . . .

ورأت عمته رأبها فيه فأدخلته الكتاب . . . ( كتاب الشيخ رزق ) ،  
ثم مدرسة السيدة عائشة ، ثم مدرسة المحمدية سنة ١٩٠٣ . . . وإذ انتهى  
المطاف بالتلميذ الصغير إلى المحمدية أخذ يذرع الطريق إليها جيئة  
وذهاباً غافلاً عن جزيرة طشوز وعهده بها . . . وغافلاً بالطبع عن  
سياستها وما تجر به عليها المقادير . . . ومن علمه السياسة ولقنه  
أخايلها ؟ . . . وبينما هو يتلقى دراسته بالمحمدية ، رجعت جزيرة طشوز  
إلى اليونان ، فعاد بعودتها والده إلى مصر ، بعد غياب ستين خالهما  
للصغير أعواماً طوالاً . . .

ولكنها عودة موقوتة تؤجج الشوق ولا ترويه ، إذ التحق الوالد بالجيش  
طبيعياً<sup>(١)</sup> ، ثم سافر إلى السودان في الجهات النائية عند واو وبحر الغزال ،  
مما اضطره إلى ترك زوجه أيضاً . . . إلى أن دنا نحو الشمال فتيسر له  
اصطحابها معه . . . وعاد الصبي من جديد إلى العيش بعيداً عن أبويه . . .  
وعهد به في هذه المرة إلى جده لأمه . وكان مسكنه يقع بين مسجد  
السلطان الحنفي وجامع الشيخ صالح أبي حديد ، مجاوراً لبيت أسرة  
شوق المشهور إلى الآن ببيت الموردي . . .

ولا ريب أن جو الصبي هنا أصنى وأروح منه عند عمته . . . بل  
لعل بيئته الجديدة أقرب إلى طبيعته الطروب ، فقد كان حافلاً بالتراتيل  
والأناشيد وتساييح الفجر تُصعدّها إلى السماء ، في هدأة الكون ، مآذن  
المساجد المحيطة بالبيت الذي يحل به شاعر تضمه الأيام .

(١) الدكتور محمد وامي والد الشاعر هو ابن الأميرالاي حسن ( بك )  
عثمان : نزل مصر سنة ١٨٧٠ وقد قتل في موقعة كساب بالسودان سنة ١٨٨٥ .  
كتاب ( تاريخ السودان ) للأستاذ نعم شقير .

كان أحمد في هذه الأثناء قد بلغ التعليم الثانوى (١) . . . . . ترف عليه  
مخايل الشاعرية .

وفي ذلك الوقت أرسلت الشاعرية البكر أوى ثلاثعها . . . . . ونظم  
طالب الثانوى قصيدة « أيها الطائر المغرد » التى نشرت فى مجلة الروايات  
الجديدة لصاحبها نيقولا رزق الله سنة ١٩١٠ .

ترى ما الذى عطفه إلى الأدب ؟ أهى تلك الخطابات الطلية التى  
كان يرسلها إليه أبوه النازح ؟ أم الوسط الذى عاش فيه ودرج ؟ لقد  
أخذت عين الغلام فى بيت عمته مكتبة أدبية كان يفتنيها زوجها ،  
وامتدت يده الصغيرة تقلب كتبها ، فعثر فيها على أول كتاب شعر قرأه  
سمى « مسامرة الحبيب فى الغزل والنسيب » ، وهو مقتطفات من شعر  
الغزل فى عصور العربية المزدهرة . . . . .

ثم اطرده به حب الأدب حتى اختلف إلى ندوات المدرسة التحضيرية .  
وكان ناظرها الأستاذ « سيد محمد » أديباً ، نظم لطلبته جمعية النشأة الحديثة .  
وكان يعقد اجتماعاتها فى فناء المدرسة يوم الخميس من كل أسبوع ،  
ويخطب المجتمعين - وعددهم يكاد يبلغ الألف - الخطباء : صادق عنبر ،  
إمام العبد ، لطفى جملة ، محمود أبو العينون ، وأضرابهم . . . . .

فى هذه الجمعية كان يلقن الطالب رامى قصائد كثيرة ليلقيها حتى  
انتهى به الأمر إلى نظم الشعر . . . . . وكانت شائبة نظمه قصائد وطنية ،  
ثم أخذ ينظم فى المناسبات . . . . .

وهيأته المدرسة الحديوية الثانوية لدخول مدرسة المعلمين العليا حيث  
تفجر خياله . . . . . ومدرسة المعلمين العليا مدرسة الرعيل الأول من

(١) نال أحمد رامى الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٧ ، والبكالوريا  
من المدرسة الحديوية .

الأدباء (١) . . . وفي مدرسة المعلمين هذه عرف رامى ألواناً من الأدبين العربى والإنجليزى . . .

وحدث فى هذه الفترة أن اضطرت أمه إلى العيش فى مصر بعد أن تركت والده بالسودان لتكون إلى جوار أبنائها الذين تجاوزوا الطفولة . . . وضمت الأم أبنائها فى بيت يقع فى حى بركة الفيل . . . فى ذلك الجو الشرقى الذى تباركه السيدة زينب ويشيع فيه الذكريات الخوالد جامع ابن طولون والقلعة والقباب والنخيل . . .

وفى هذه الأثناء اتصل بحافظ إبراهيم وعبد الحلیم المصرى ، وعن طريق أخيه وهو زميل رامى فى المدرسة ، عرف إسماعيل صبرى فقد صحبه إليه ، وكان منزله يقع أمام مدرسة طب قصر العينى ، وكانت له ندوة أدبية . . . ولم يكن رامى قد طبع ديوانه الأول بعد .

وهنا يطيب أن نقف لحظات عند علاقة الشاعر بمشاهير عصره فى فنه . . . سألته يوماً عن أحمد شوقى ، فسكت برهة ، ثم قال : لقد أحببت « شوقى » وأنا كبير بعد أن فهمته لا عن إيجاء من شهرة أو ناس . وتطلعت إلى لقائه سنة ١٩٢٠ بعد أن أخرجت ديوانى الأول ، فطلبت من زوج أخت شوقى أن يجمعنا فكان لقاء ( فى جروبى ) ، انتهزه أحمد رامى ، فقدم إلى شوقى الجزء الأول من ديوانه . ففتح شوقى ثم قرأ أبيات الشاعر خليل مطران فى التقديم ، فقال لرامى : كنت أتمنى أنى كنت فى مصر لأسجل لك أبياتاً . فقال له رامى . . . إن شاء الله لا يفوتك الجزء الثانى . . .

ثم سافر رامى سنة ١٩٢٢ إلى باريس فى بعثة علمية . وكان شوقى يزور فرنسا كل صيف فيلم به رامى . . . وفى سنة ١٩٢٤ عاد رامى من فرنسا ، وعرف أم كلثوم ولازمها ، حين لازم محمد عبد الوهاب « شوقى » ؛

( ١ ) من زملاء رامى الأساتذة : فريد أبو حديد ، عبد الحميد العبادى ، أحمد زكى ، محمد بدران .

فالتقى الشاعران عن طريق الغناء، فقدم شوقي « بلبل حيران » و « في الليل لما خلى » حين قدم رامى « إن كنت أسامح وأنسى الأمية » و « أخذت صوتك من روحي » .

والتقى مرة أخرى عن طريق المسرح ، إذ قدم شوقي للمسرح المصرى مسرحيته « مجنون ليلى » ، وقدم رامى مسرحيته « غرام الشعراء » . ومثلت المسرحيتين السيدة فاطمة رشدى .

وكثيراً ما ضمهما على الود نادى الموسيقى الشرقى . . .

واعجب شوقي برامى واختصه ، وكان يطيب له أن يدعو إلى بيته فى حفلاته ، وأن يرافقه فى خلواته خارجة . . . وكان رامى يروق له أن يلتقى شعر شوقي فى الأندية . وتوثقت الأسباب بينهما حتى إن ( شوقى ) كان يُسمع « رامى » شعره قبل إخراجهم للناس .

وروى لى رامى أن أكثر شعر شوقى إنما نظمته فى السينما الصامتة ! . كان شوقى يزعم أنه ضعيف النظر فيسمى ويأخذ مكانه فى الصفوف الأمامية ، وهناك يترنم به ( ويدندنه ) . وفى الاستراحة يقابل « رامى » ويسمعه شعره .

كما كان رامى يحب شوقى ويؤثره على سائر شعراء العرب على الإدلاق فى القديم والحديث . . . سمعت منه هذا أكثر من مرة . . . وأشد ما كان يهز رامى قصائد شوقى التاريخية « النيل » و « مصابير الأيام » و « ناشئ » فى الورد من أيامه » و « أنس الوجود » و « أبو الهول » و « توت عنخ آمون » .

أما الشاعر خليل مطران فقد عرف أنه يجلس فى قهوة سيلندد Splendid أمام حديقة الأزبكية ، فتقدم إليه بنفسه وعرض عليه شعره . وأصبح بعد ذلك يلقاه ، وزادت صلته به بعد عودة شوقى من أسبانيا .

وإذا كان رامى بعد أن نضج واستغنى عن تقديم الواصلين ، قد فوت علينا حين صفى شعره وجمعه فى ديوان واحد ، تقديم مطران للجزء الأول ،

وتقديم شوقي للجزء الثاني ، فإني في مقام التأريخ أسجل أبيات  
الشاعرين . . . وقد قدم خليل مطران الجزء الأول بهذه الأبيات :

ولفظ دان بعيد المرأى	حبذا الشعر خاطريبعث النور
وشذا أو كمرتع الآرام	كل بيت كمنبت الزهر حسناً
لندى الصبي سنى المرام	بهرتنا آياته في كتاب
ما شككنا في أنه سهم رأى	مذرى سهمه فجاء المعلى

وأما شوقي فقد قدم الجزء الثاني بالأبيات :

عذب عليه من الرواة زحام	ديوان رأى تحت حاشية الصبا
واليوم للتالى الولى سجام	بالأمس بكل صدق النهى وسمية
جنبات روض ظلهن غمام	شعر جرى فيه الشباب كأنه
لك متنوع في السهل ليس يرام	يا رامياً غرض الكلام يصيبه
إن الشباب وراءه الأيام	خذ في مراميك المدى بعد المدى

أما شاعر النيل حافظ إبراهيم فقد تعرف إليه رأى حين كان طالباً  
بالمعلمين . وعرض على حافظ بشائره فشجعه ثم توطدت صلته به في  
حلوان سنة ١٩١٩ ، حيث كان يسكن حافظ ويستشفى والد رأى . . .  
وكان مجلسهما في حلوان يضم البشرى والبابلي ومحمد المويلحي وأحمد فؤاد  
صاحب (الصاعقة) . . .

ثم حدث بعد هذا أن سافر رأى إلى فرنسا فما إن عاد سنة ١٩٢٤ حتى  
عاد اللقاء بين الشاعرين وتمكنت الألفة . . . وكان حافظ في ذلك الحين  
وكيلاً لدار الكتب . . .

ويؤثر رأى من شعر حافظ قصائده :

« سجن الفضائل » و « حطمت اليراع فلا تعجبى » و « لا تلم كفى  
إذا السيف نبا » و « آذنت شمس حياتى بمغيب » و « راجعت نفسى  
فاتهمت حصانى » و « بنات الشعر بالنفحات جودى » و « هجعت

يا ضير ولم أجمع « و « شبعاً أرى أم ذلك طيف خيال » وقصيدة زلزال  
مسينا . . .

ولكنه بعد هذا يفضل « شوقي » ، وكم ستفر رامى بينهما فيما ينجم  
عن المنافسة ، والمعاصرة ، وأحاديث المجالس بما تضمنه من أنصار وخصوم  
ومروجي إشاعات .

\*\*\*

وعرف رامى « ولى الدين يكن » حين كان يسكن حلوان ، وكان يقيم  
بها على الدوام .

وعرف من الأدباء كثيرين ممن عاصروه في الشباب وما بعده . . .  
وفي مقام الذكريات والحوادث والظروف والناس والمعالم التي صنعت  
« رامى » ، نذكر نادى الموسيقى الشرقى ، وكان أول ظهوره في دار المؤيد  
بشارع محمد على . . . هناك كان رامى يطلع على الناس بشعره في الأوقات  
التي تفصل بين وصلات الغناء . . .

واتصال الشاعر بنادى الموسيقى الشرقى زاده قرباً من النغم فهواه ،  
وهو الذى كان قديماً يسعى إليه بأية وسيلة . . . فكان يتعرف إلى . . .  
إلى « بائعى اللب » ليقف منهم على مغاني الأفراح . . . وكم ذهب إليها  
من غير دعوة . . . ومنى . . . في الحادية عشرة مساء حيث يتجلى  
المغنى ويتحلو معه السهر .

ويستمع أحمد للغناء في شطح وأستغراق . . . وله معرفة بالصناعة  
وإجادة إذا غنى . . . وأكثر ميله إلى الدخيل في العربية من النغمات  
الأجنبية كالنهاوند والعجم والنكرين وما إليها<sup>(١)</sup> .

وكان المغنون يعرفون فيه « سميعاً » فيقربونه ، ومنهم في صباح يوسف  
المنيلوى وعبد الحى حلمى ، وفي شبابه داود حسنى ، وأبو العلا محمد ،

وإبراهيم شفيق ، وصالح عبد الحى ، ثم سيد درويش ، كما سمع بلبل ذلك العصر . . . منيرة المهديّة . . .

كل هذا فى أثناء وجوده بالمدرسة الخديوية ومدرسة المعلمين ، وبعد تخرجه أى فى الفترة من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٢ (١) .

نعم كان طالباً فناناً لم يشغله تحصيل العلم عن الفن ، . . . كان سيال النفس ، حنان الحس . . . كان وهو طالب يقف فى مناحات الخميس يسمع ويبكى حتى العصر ! ! وكان يهيم وراء الباحثين المتغنين فى الشوارع والحارات حتى لقد مشى يوماً وراء عربة جميز من بيته فى حى السيدة زينب حتى بولاق . . .

وكان وهو مدرس يخرج عن موضوع الدرس ويلقن تلاميذه أناشيده الشعرية بعد أن يلحنها لهم ، على غرار بعض الأغاني الشائعة . . . ومن فصله وعن تلاميذه ينتشر النشيد فى المدرسة كلها . بل فى أحيائهم التى تقع بيوتهم فيها يفعل هذا حتى فى حفص الديانة . . .

وهو لا ينظم إلا إذا سمع موسيقى أو غناء ، وإذا نظم لا يكتب شعره ، بل يغنيه ترنيماً . ولعل هذا سر ليونة لفظه وطواعيته . . .

« ويصبو للطبيعة ومناظرها أصلية ومصورة ، ويستهو به اللون البنفسجى الضعيف ” الباهت “ ، لعل الكاتب أراد ” الناصل “ ويهش للزهر

---

(١) تخرج رامى فى المعلمين العليا سنة ١٩١٤ ، واشتغل عقب تخرجه بالمدارس الأهلية الثانوية كدرسة القاهرة الثانوية بدرب الشمس بالسيدة زينب ، ثم مدرسة سانت مارى الثانوية . وفى سنة ١٩١٦ درس فى القربية الابتدائية الحكومية ، وظل بها حتى سنة ١٩٢٠ . . . ثم صار أميناً لمكتبة مدرسة المعلمين العليا من سنة ١٩٢٠ - ١٩٢٢ ، حتى أوفدته الحكومة فى بعثة إلى فرنسا لدراسة فن المكتبات لمدة سنتين ، أى سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٤ ، فلما عاد عمل بدار الكتب ينتقل فى مناصبها منذ سنة ١٩٢٤ إلى أن بلغ سن المعاش ، وكان قد صار وكيلاً لها .

وينتست للطير والماء . ويحب الليالى القمرية . . . وله ضحكة رفيعة  
مسرعة تخرج ذات ضوضاء . ويتحرك لها الشاعر من أعلى إلى أسفل .  
ويولع أديبنا بالحسن - وما أكثر ما أولع - ويطلب فيه معاني خاصة  
تميزه . . . (١) .

وإذا نظم رامي الشعر لا يدونه ، ولكنه يغنيه مترنماً ، فإذا دُعِيَ إلى  
إلقاء قصيدته في حفل عام ، رأيتَه يتسلل بين الجموع ، ويمر بين  
المقاعد لا يكاد يحس بخطواته أحد ، حتى ينتهي إلى مكانه فيأخذ  
مجلسه . وإذا نودي باسمه ، مشى إلى منصة الخطابة بخطوات سريعة  
مترنة خفيفة اللمسات ، يكاد لفرط رفته يطير ، ثم يقف واضعاً إحدى  
يديه على المنصة والأخرى تظل حائرة ، فرة تعيث بفضل رداه ومرة  
تسلم خاصرته ، وحيناً تقبض على الهواء . ويلقي قصيدته بصوت عذب  
الرين ، هادئ النبرات ، لكنه مع هذا الهدوء يسمع الحفل كله لصفاء  
صوته ووضوح نغارجه . . . (٢) .

ورامى ممن صهرتهم الأحداث والآلام . . . لقد ذاق اليم ، وتجرع  
الشكل ، ومُنَى بفقد الأحبة ، وتشوه وجهه بفعل المرض والحوادث وهو  
في الثلاثين من عمره ، وهو مغموط في عمله فقد ظل الشاعر الفنان ١٩ سنة  
في الدرجة الخامسة ! وهو آت من أوروبا متفتح النفس ، واسع الأمل ،  
يحمل ثلاث شهادات عالية ، ويجيد من اللغات الأجنبية : الإنجليزية  
والفرنسية والفارسية ويفهم معها التركية ، فتقدم عليه حامل شهادة  
ابتدائية ! ! .

ثم خرج من دار الكتب بعد ثلاثين سنة خدماً فيها بمعاش قدره  
خمسة وثلاثون جنيهاً ، حين وصل زملاء له إلى المناصب الكبيرة .

(١) عدد (الاتحاد) الصادر في ٣٠/٩/١٩٢٥ .

(٢) عدد (كل شيء) الصادر في ٥/١/١٩٣٠ .

وحيث أقول خدماها أقف وقفة ترسم أبعاد هذه الحروف التي قد يظن أنها مجرد لفظة كلام .

حين رجع رامى من باريس وجد الفهارس في دار الكتب تتبع نظام اسم المؤلف، أو عنوان الكتاب (وكثيراً ما كان العنوان لا يوافق المضمون) ، أو موضوعات (وهذه أيضاً لا تعطى عطاءها كله) .

وهنا استحدث رامى أسلوب tatch word أى جوهر الكتاب (أو مفتاحه) ويجعله رأس فيشة يجمع تحمها ، وحولها ، كل ما كتب عنه متفرقاً في كتب شتى . وقد استأداه هذا العمل أن يجرّد مخزن دار الكتب واستغرق هذا بضع سنوات حتى غدا موظفو الدار وعمالها حين يخرجون الكتب على هدى (المادة) ينسبون هذا إلى (فهرس رامى) .

ولعل أكبر ما أداه رامى لدار الكتب ولصر هو تحقيقه ومراجعته وإخراجه (قاموس البلاد المصرية) ولهذا القاموس قصة : كان صاحبه الأستاذ محمد رمزى مفتشاً بالمالية . . . وكان عليه أن يقدر الضرائب فأتخذ من عمله منطلقاً إلى عمل كبير إذ جاب القطر المصرى بشمسية على ظهر حمار على امتداد ٢٥ عاماً همه معرفة أساس القرى . وكان أن وضع بعد هذا المسح الشامل عشرين ألف فيشة وأربعين كراسة مقسماً القرى المصرية إلى ثلاثة أنواع :

- قرى مندرسة (وهذه خصصها بجزء) .
  - قرى حالية بالوجه البحرى (وخصصها بجزءين) .
  - قرى حالية بالوجه القبلى (وخصصها بجزءين) .
- فكان الكتاب من خمسة أجزاء .

وقد عرضت دول أوروبا على الرجل أن تشتري كتابه هذا وتطبعه فرفض مؤثراً بلده مصر . وحدث أن توفى المؤلف قبل أن يطبع الكتاب وترك بنتين رأتا أن خير تصرف أن تعطيا مادة الكتاب لدار الكتب . فاشترت الدار عشرين ألف فيشة وأربعين كراسة بمبلغ ٣٠٠ جنيه 11

أى أن هذا العمل الكبير كانت قيمته جنياً في الشهر !  
 وضعت دار الكتب الفيشات والكراسات في خزانة حديدية أضيف  
 مفتاحها إلى مفاتيح الخزائن الأخرى مع مدير الدار .  
 وفي هذه الأثناء كان أحمد رامى وكيلا لدار الكتب . . . وحدث  
 أن غاب المدير فكان مديراً بالنيابة وتسلم المفاتيح مع تعريفه بها . . .  
 ولما كان يعرف ( محمد رمزى )<sup>(١)</sup> فقد استأذن المدير في الاطلاع على كتابه  
 والعمل على إخراج . . . وهنا أحضر أوراق الجرائد البيضاء، وظل أربع  
 سنوات من ١٩٥٠ - ١٩٥٤ تاريخ خروجه على المعاش ثم سنتين  
 آخرين إلى سنة ١٩٥٦ يعمل على ترتيب وتحقيق ومراجعة الفيشات  
 وربط المعاومات بها . . . يعاونه في هذا العمل السيد - أحمد لطفي السيد  
 الموظف بالدار وقتئذ<sup>(٢)</sup> . وكتب أحمد رامى إلى وزير المعارف يطلب إليه  
 الموافقة على طبع الكتاب متعهداً بمراجعة البروفات مجاناً . فبدأ الطبع  
 سنة ١٩٥١ مواكباً عملية التحقيق . . . وتم سنة ١٩٥٦ - ١٩٥٧  
 وخرج الكتاب باسم :

[ قاموس البلاد المصرية من أيام الفراعنة إلى اليوم ]

وهكذا خدم رامى دار الكتب . . .

وخرج منها كما وصفت . . .

ومع هذا لم يشك الرجل ولم يتبرم ، بل ظل والأحداث تعمل عملها  
 فيه - ضحوكاً متفائلاً . بل لعل أحداً لم يتكلم عن الأمل مثله . . .  
 ولا يحتاج هنا بقصائد كابية ، فقد يستعلى الإنسان على الألم ، ولكنه  
 لا يستطيع أن ينجو من إحساسه به كل النجاة . . .

(١) الأستاذ محمد رمزى أخو الأديب إبراهيم رمزى .

(٢) وهو بالطبع غير أستاذ الجليل أحمد لطفي السيد .

وكسب زامى المال وبرق فى يده منه الكثير . ولكنها كانت مبسوطه  
كل انبسط : فتفقد المال بدون أن يتبقى منه فضل فى بنك ، أو يتخلف عنه  
يراد من أرض تـُغَلّ : أو بيت يُدْر .

كان فناناً يعيش يومه وحده . . . فلم تكن لماديات عصره المادى ،  
عنده : اعتبار . . .

...

### حياة فى سطور . . .

طفل غريب . . . شاب حالم . . . شاعر مرجئ . . . بعثة إلى  
أوربا . . . عالم جديد . . . لغة جديدة . . . لقاء مع الرباعيات . . .  
عمود واعد . . . صوت جديد وغريب . . . حب وتشبيب . . .  
شهرة وأضواء فى ناحية . . . وغمط وجحود فى ناحية أخرى . . . شاعر  
أغاني تردد قوله الجموع . . . وموظف تخطئه الترقيات ، وتخطاه  
الدرجات فلا يأسى ولا يشكو . . . إن المال يتدفق عليه من طريق آخر  
أليس صاحب المسرحيات والأغاني . . . ليهنا عباد الوظيفة بالقطرات  
فى لجة البحر ما يغنى عن الوشـل . . .

فنان هايم فى ( الورد النائم ) وليالى القمر ، وإنسان عاطفى يجب  
الحب ويرضى ظلم الحبيب ويهوى السهد والحنما ويتمايل على ترجيع  
الأغاني . . . وباحث صلب مدقق محقق دعوب يصل السنين فى  
إخراج قاموس من خمسة أجزاء !

شريط حافل وتاريخ عريض . . . من كان يظن ؟ من كان يدري ؟  
حتى هو نفسه هل قدّر هذا ؟ هل تصور البداية ؟ هل  
تمثل ما صار إليه ؟ هل توقع يوماً أن يقصر فى حق الشعر مهما  
كان السبب حافظاً ؟ أترأه يحمد ما صار إليه أم يأسى على فائت ؟ قد  
يسهل علينا التكهن بعد دراسته فى شعره وأغانيه . . . فىلى هناك .

# حديث شعرة

ها هو ذا الديوان . . . هيا نبحث فيه عن الشاعر . والمترجم لشخصيات معاصرة . تشتد حيرته ويرهقه الحرج حين يظن الناس أن مهمته أسهل . أليس يعيش في جوهم ومجتمعهم ويلمس المؤثرات العامة التي أثرت فيهم ، عن مكابدة وإحساس ؟ ولكني أرى رأياً آخر ، فالمعاصرة في رأيي عامل معوق ، لأن الدارس يفتقد معها البلورة التي تحدد الشخصية المدروسة . . . فالشخصية لا تتحدد معالمها النفسية والفنية تحديداً دقيقاً إلا إذا درست في ظل دراسة صحيحة للمجتمع الذي عاشت فيه ، بعد تبلوره وتحديد العوامل التي كلفته ، العوامل الاجتماعية ، والعوامل السياسية ، والعوامل النفسية ، لأن هذه كلها متصلة الأسباب بالشخصية المدروسة بينهما وثيقة قرني ولحمة نسب . . . ولا يكفي - كما يحسب البعض - الوقائع المادية التي يعرفها الدارس بالمعاصرة .

ومن ثم أضطر اضطراراً ضاغظاً إلى أن أجعل دراستي لآثار المعاصرين الأدبية ، موضوعية إلى حد ما مع إيماني برأي الأستاذ الناقد على أدهم الذي يقول : « إن آثار الكتاب مع أهميتها في الدلالة عليهم ليست وثائق مؤكدة في وصف أخلاقهم وحوادث حياتهم » (١) .

•••

عرفنا قصة والده وأسفاره . وكيف أن « رامي » الطفل الذي تفتحت عينه على الجمال في الطبيعة لم يلبث طويلاً حتى عاد صغيراً إلى مصر وواصل الأب رحلاته . . . ولكنه طفل حساس مفرط الحساسية . . .

(١) العدد ٢٢٩ من مجلة « الرابطة الإسلامية » الصادر في

١٩٥٤/١١/٣٠ .

كان يحس أنه ينقصه شيء كثير . . . بل ينقصه كل شيء . . .  
 تنقصه لفظة « بابا » التي تضي على قائلها الأمان والرضا والطمأنينة . . .  
 تنقصه لفظة « بابا » التي تضم من الفرح والراحة والثقة معاني جملة ،  
 لا يعرف الصغير بعقله الطفل كنهها ، ولكنه يستشعرها بفطرته فمن له  
 « بابا » فهو ملك صغير ملبى النداء مستجاب الرجاء ، من له « بابا » فهو  
 محاط باللمسات والضمات والقبل ، ومن له « بابا » فله في كل عيد ثوب  
 وفي كل يوم بهجة . . . وعلى كل شفة ابتسامة . ومن له « بابا » فله سمير  
 وله صديق وله رائد . . .

لهم الله أولئك الذين يفقدون آباءهم في فجر العمر والطريق طويل  
 والسرى حافل ! .

لهم الله أولئك الذين يزوج بهم إلى معركة الحياة صغاراً أغراراً لا تقوى  
 سواعدهم على حمل سلاح ، ولا تقوى قلوبهم على تشخين الجراح ،  
 والمعركة لا ترحم ، وما من قائد يدبر أو درع تقي ! . . .

لهم الله أولئك الذين حكم عليهم أن يقفوا بأعوادهم المرتجفة في هوج  
 الرياح بلاخمي من مأوى يقل أو ندى يُطل أوجناح يكن أو ظل ينيء ! . . .

مر الصبا من غير ما يا أبي	بها أناديك وجاء الشباب
كم مر بي عيد تمنيت أن	يلبسي فيه جديد الثياب
وحين أدركت المنى لم أفر	من ثغره بالبسمات العذاب
لم أمتع من أبي مرة	بمجلس حلو نصير الجناب
أو خلوة تنلني أحاديثه	فيها على سمعي ندى السحاب
نشأت في يتم ولى والسد	فما اكتني الدهر بهذا العذاب
وزادني أن غاله فانطوى	بموته الصفو وعم المصاب
حرمته حياً طليح النوى	وفته ميتاً للقى في يباب <sup>(١)</sup>

(١) قصيدة « يا أبي » ص ٤٢ من الديوان ط. دار الكتاب العربي .

على أن في الأبيات خبئاً، ونلاحظ أن بحر السريع الذي نظمها منه صعب جداً. وفي قلبه جرح آخر غائر خلفه أخوه الذي راح :

مستوحشاً في عيشه ومماته      متغرب الأموات والأحياء  
هجر الديار وأهلها لاعن قلبي      إن الديار أحقّ بالحبوباء  
لكن حباً المجد أشعر قلبه      رغم الهوى شيئاً من البغضاء  
وقضى الحياة بعيد مطرّح المني      والحلم شرّ فواتك الأدواء  
حتى قضى جهداً وراح شبابه      ونأى عن الزوار أي تناء  
وثوى وما من واقف بضريحه      راع سوى صفصافة فرعاء  
تبكى بأناث النسيم إذا سرى      وأرنّ في أغصانها اللفاء (١)

هل اكتفت الأيام بهذا المقدار ؟ ... لا ... هناك سهم جديد  
راشه فأصماه :

هي أختي درجت في كنفى      ثم أمست وهي للروح سكنى  
علتها طفلاً على بعد أبي      وهو نأى الدار عني والوطن  
ثم دلت صباها فنممت      كالنبات الغضّ في ظل الفسّان  
فظواها الموت عني بغتة      في الشباب الغضّ والوجه الحسن (٢)

ولما كان الألم بوتقة النفوس الحساسة فقد صهرت الحن المتوالية  
« رامي » ، وتركت عليه ميسمها ، ففيه شقّة الحزن ، وفيه ومضة المجرب ،  
وفيه حنّة البكسى ، وفيه رحمة الشجى ، وفيه رقة النجى ، وفيه برّ  
العائل ...

فإذا أضيف هذا كله أو أضيف إلى هذا كله شاعرية الشاعر ،  
وفنية الفنان ... فذاك رامي ...

تركت له أخته التي حدثنا شعره عن مصابه فيها ، ولدأ كان لا يزال

(١) قصيدة « صفصافة على قبر غريب » . ص ٤٤ من الديوان

(٢) قصيدة « أختي » ص ١٠٣ من الديوان .

في المنهد صبيحاً ، فهل ناء به ؟ شعره يقول : لا . . . إن حديثه عنه  
حديث أنودود الأعوف حتى لاشتبهى أن تسمعه :

تركت في صدرك في صورة من جبين واضح النور فتن  
وعيون تسحر اللب بما أودعته من ذكاء وفطن  
وفم حاو اللّمي مبتمم فتر عن درّ تواري واستكن  
فيه منها ما يعزيني على فقدتها إما هفا قلبي وحن  
وابن أختي قطعة من كيدي أفتديه العمر روحاً وبدن<sup>(١)</sup>

هل يوجد أبرّ من هذا بين الآباء بله الأخوال ؟ لقد تعهد رامي  
الطفل . . . تعهد جسمه وعقله حتى صار رجلاً يعتده الوطن بين ضباطه  
وتدخره مصر ليوم موعود . . .

هنا جمال الإشارة في الدر الذي تواري واستكن ، وهنا جمال التصوير ،  
أكاد أرى الطفل غضباً في الشهور الأولى وقد أضلت أسنانه الطفلة برعوسها  
في فمه وأمساً يبدُ منها ، بعد ، غير نقط بيضاء متناثرة في الفم  
البسّام . . .

وتلك قاصمة الظهر . . . إن قلبه في هذه يمتحن امتحاناً رهيباً . . .  
هيهات لذا الجرح من ضماد ولا آس . . . وكيف يُداوى قلب الأب  
من جرح البنية ؟ . . . إنها ابنته « أحلام » :

سميتها « أحلام » من طول ما ناجيت في دنياي أحلامي  
عشقتها طيفاً رفيقاً الخطي يسبح في آفاق أوهامي  
لا ينثنى عن فتني خالياً أهيم في صحراء أيامي  
أو ساهراً تحت الدجى ساهداً أردد الشكري بأنغامي  
سميتها أحلام حتى أرى أني أضمُّ اليوم أحلامي  
إن نظرت عيني إلى عينها غمرت فيها كل آلامي

نسبت من ماضى ما نالني  
وعشت في الحاضر عيش الرضا  
سميتها أحلام يا ليتني  
رقت كزهر الروض في غصنه  
ولم تكد تفتّر عن بسمه  
حتى ذوت والعمر في فجره  
راحت كما ذابت خيوط الضحى  
من برّج أوجاعي وأسقامي  
في جنة من روضي النامي  
سميت شيئاً غير أحلام  
لما زهّأ تحت الندى الهام  
كالومض في بحر الدجى الطام  
ثم يتعدّ أفق المشرق الدام  
ولم أزل في ليل أحلامي<sup>(١)</sup>

لقد عرف رامى الألم في أثقل صوره على النفس وأشدّها وقعاً. عرفه  
في صورة الأب الذي برح به السقام فلا هو يُرجى ولا هو يُفدى ولا هو  
يشئ ، ولكنه يدوى فيدوى معه كل إشراق .  
وعرف شاعرنا الألم في صورة الأخ الودود يخلى مكانه في الدار ويعمره  
في القلب . . .

وعرفه في صورة « أحلام » ابنته التي ما كاد يشمها ريحانة حتى تساقطت  
أوراقها في يده ، فلم يبق منها إلا ذكرى من مس العبير . . .  
من يلوم الرجل أو يلحاه إذا قال بعد هذا الكتبّد كله :

أنا للحزن وما يعيشه  
كلما صرت بنفسى خاليماً  
يعرض الماضي فيسقيني الذي  
ثم يدعوني إلى مجلسه  
في خيالي من تهاويل الشجن  
يتبدى من غيابات الزمن  
ذقت فيه من أفانين المحن  
بين أواه وباك من حزن

إن الشجى يأنس إلى الشجى . . . والبكى يستريح إلى البكى ،  
ولا يجمع القلوب كالألم ، ولا يرقىء الدمع كالتأسى . . .  
وفي نفس رامى ندوب كثيرة يجرى منها الدم . . . رثى أخاه « محموداً »  
فهاج الرثاء هذه الأشجان :

جذك سالت نفسه في وعي وعمك المبكى ذاق السردى  
يا ثالث الثاوين في غربة ويلام إذا شكى أو بكى !! . . . . .  
وتسأله عن هؤلاء الخليلين اللوم فيقول :

يلومني الناس ولم يشرعوا رنق أسقاه وبى غلّة  
أعلم ما في مائه من قذّى يا نهر أياى أمّا نهلة  
وأقفر الشيطان من جنة وهاجر الطير فلا صاح  
في نهر أياى الذى أجرع في الصدر لا تشنى ولا تنقع  
وأستقيه وأنا طبع تروى الصدى أو جانب مّرع  
فأوحش المصطاف والمربع يشدو على الأغصان أو يسجع (٢)

فهل يلام إذا أن :

وفي فؤادى منبع للأسى وكل ما فى العيش من راحة  
مذكر نفسى الذى فاتنى أو تفيض منه مؤلمات الذكر  
أو تعب أو دعة أو خطر أنس للدمع إذا ما انحدر

حتى الدعة تذكره بآلامه وأحزانه ! . . . . . ألا يطيف بك هذا المعنى قول القائل :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأنحو الجهالة فى الشقاوة ينعم  
ذو العقل وذو الحس الطاغى يشقى فى النعيم بعقله ! . . . . . وهل  
نريغ فنّا إلا على ضوء نفوس تحترق ؟  
لقد عرف راي الألم ، ولكن ألم الشاعر ألم موجب لو صح هذا التعبير ،

( ١ ) قصيدة « دمة على محمود » ص ٦٤ .

( ٢ ) قصيدة « نهر الحياة » ص ٣٣ .

فلم يقعد به عن السير ، ولم يعجزه عن النماء والازدهار . . . لقد بكى  
 وشكا ، ولكنه ليس بكاء العاجز الذليل وليست شكاة المستسلم الخائر . . .  
 ولكنه صاغ الدمع أوزاناً ، والشكوى أحياناً ، والألم شعراً . . .  
 وليس الذي تركه الأيام معذباً كالمرضى المشفى : لا هو حى فيرجى  
 ولا هو ميت فيستريح ، ثم يمده الألم بهذه الأبيات ، ويعينه الشجن على  
 تجسيم هذه الصورة . . . ليس هذا بشاك تنفرك شكواه ، ولا باك  
 يزعجك بكأؤه ، ولكنه إنسان له قيم وله مشاعر ، وله أحاسيس ، وله  
 دموع تسكب على نفسك شؤبوساً من الرحمة وبرداً من العزاء . . .  
 ألا تمس هذه الأبيات نفسك في أرق مواضعها :

ليس الشهيد هو الذى يطوى الثرى	ويقرّ تحت جنادل ورجام
لكنه الحى الذى فى قلبه	من طعنة الأيام جرح دام
كالطائر المجروح ضمّ جناحه	طول الحياة على حداد سهام
سكنت فما انتزعت مكين سنانها	كفّ وماسقته كاس حمام (١)

هذه صورة إنسانية . . . إنه إنسان ذلك الذى يستقطر النعمة من  
 الألم . . . كالعالم البصير الذى يستخرج الزبرّ من تراب المنجم . وقد  
 يراه الكثيرون فلا يزيدون على أن يجعلوه لأقدامهم موطئاً ! . . . بل  
 لعلهم ، أو لعل بعضهم ، يسخر من ذلك العاكف على التربّ الواقف  
 عليه وقوف شحيح المنبى وقد ضاع خاتمه . . .  
 هاتى املئى كاس الشقاء فإنى أستمرى الأحزان يا أيامى (٢)

تُرى كيف تُستمرّ الأحزان ؟ وإيهم ؟  
 الحزن أدبى وهذب خاطرى وأناى أفق الخيال السامى  
 وأسأل أسرابَ الدموع فصغتها صوغ المعانى فى شجى نظامى

وأرقَّ إحساسي ومدَّ عواطفِي      فتوصلتُ كلَّ الناسِ في أرحامِي  
قاسمتهم أحزانهم وحملت من      أعبائهم شطراً من الآلام (١)

إنه يمتح النعمة من الألم لعله يحمل نفسه على التفاؤل حملاً ليرى  
الجانب المشرق . . . من الأشياء حتى الألم . ولكن أبلغ به الأمر أن  
يستزيد من الشقاء ؟ . . . إنه يسخر بلا شك حين يقول :

هاتِي املئي كأس الشقاء فإنني      أستمريُّ الأحزانَ يا أيامي (٢)  
وهو يسخر أيضاً حين يقول :

ماذا أودَّ من الزمان وقد غدا      يعتدني خصماً من الأخصام  
إن الأمر والاستفهام في البيتين قد خرجا عن معناهما الحقيقي كما يقول  
البلاغيون . . .

ماذا أود من الزمان وقد غدا .      يعتدني خصماً من الأخصام  
ما زال يفري في نواحي جدتي      ويلح في إذواء فرعي النامي  
حتى غدوت وتحت أطباق الثرى      بعضي وبعضي نُهزةُ الأيام (٣)

وبعد، فلست أقول إن الشاعر يعشق الألم ويتمناه، ولكن ما أردت  
أن أقوله هو أنه وكيف نفسه على هوى الظروف التي تلم به ويستعلي عليها،  
بأن يحول قناتها إلى إشراق الفن، ويستبدل بجهاها جمال القصيد . . .  
على أنه في صراع دائم بين مرارة الحقيقة، وتفويف الخيال . ولكنه  
عَوَدَ نفسه « أن ترى أفياء هذا العيش ظل جهام » . . .

حزن على الماضي وخوف عاجل      مما يخبيُّ آجل الأعوام  
بين الحقيقة والخيال مصارع      أودت بما في النفس من إقدام  
لكنني عودت نفسي أن ترى      أفياء هذا العيش ظل جهام

وأخذت أذنى بالنواح فأصبحت  
وتركت عيني للدموع فأصبحت  
ورجعت وطلت الفؤاد على الضنى  
وغرست في قلبي الشجون فأثمرت

تستعذب الأثبات في الأنعام  
في الضوء آنسة وفي الإظلام  
فاعتاده . واعتدت بريح سقامي  
وجنيت منها نعمة الآلام (١)

.....

لنتفح الآن صفحة جديدة على رامي « الأب » لنسمع معاً هذه  
المناعاة:

يا بني ، ما أحيلى يا بني  
نعمة العمر وتذكارة الصبا !  
لست أنساك جنيناً خافياً  
أتمناك لعيني قرة  
أرقب اليوم الذي تبسم لي  
فأناجيك بألحان الهوى  
كلمات هي لا معنى لها  
فتراعيني ولا تقوى علي

أنت ظلّ مده الله على  
والأمانى التي عزت لدى  
في ضمير الغيب أدعوك إلى  
حين ألقاك وليداً في يدي  
وترى آي الرضا في مقلي  
سابقات خاطري في شفّي  
غير أن تسمع مني أي شيء  
غض أجفانك عني يا بني

إنه هنا يخلق فوق الشعر وفوق الحياة المادية بقيمها وتوافهها على  
السواء . . . إن ألحان الهوى التي يتحدث عنها الأب في الشاعر أروع وأغنى  
وأفنى من كل لحن في الدنيا حيناً به ناي ، أو غننى به عود ، أو رجعته  
قيثار ، أو رنمه وتر ، أو شدا به غريد ، أو دَفَّ به صوت وأو صبيغ من  
سلسال الفضة أو رنين البلّور . . . وما ألحان هؤلاء جميعاً إذا خفق  
القلب الإنساني بحب البنوة وناجاها بألحان الهوى ؟

إن الشاعر على فنه لا يدرى كيف يصفها . . . وتبلغ حيرته مداها  
فيتمم :

(١) ص ٦٦ من الديوان .

(٢) قصيدة « يا بني » ص ٥ .

كلمات هي لا معنى لها      غير أن تسمع منى أى شى  
 أتراها تكون أشواقاً ورفاقاً ؟      إن الشوق بعضها  
 أتراها تكون حياة دفاقة ؟      إنها أكثر من حياة اندمج بعضها  
 أتراها تكون منى حلوة ؟      فى بعض وسرى فيه واتحد به .  
 إن المنى منها وليست كلها

... إنها ألحان الهوى . . . وإنيها أشواق وحياة ورجاء وخوف وماض  
 وحاضر ومستقبل . إنها الأبوة والبنوة . . . إنها . . . لست أدري . . .  
 أشهد أنى حائرة . . . بل لعل حيرتى أكبر فلست شاعرة . . . إنها :  
 كلمات هي لا معنى لها      غير أن تسمع منى أى شى

\*\*\*

وإذا كان ديوانه<sup>(١)</sup> قد خلا من المدح والهجاء والسياسة فذلك لأنه  
 كان يغنى لنفسه ويرسمها فى أحوال شتى .  
 وقد صور رامى نفسه فى حالتي صفوه والكدر وهو يشكر مصوراً  
 صديقاً :

أريئتني البحر طاغى العباب      تحطم أمواجه فى الصخر  
 وصورت لى البحر فى زهدأة      تجلت صحيفته كالغدر  
 كذلك حالات نفسى ترد      د بين الصفاء وبين الكدر<sup>(٢)</sup>

ولم ينس عاشق الطبيعة أن يغرى صديقه بها فى هذه الهمسات :  
 تعال فقد سثمت نفسنا      من العيش فى غمرات الحضر  
 نهم مع الطير فى جوه      نمجد ما خلق المقتدر<sup>(٣)</sup>

(١) الشاعر يصنع شعره مع كل طبعة . ومن الجائز أن يكون له شه  
 فى المدح والهجاء والسياسة أسقطه عند الطبعة التى بيدى .

(٢) قصيدة « إلى مصور » ص ٣٥ - ٣٦ .

(٣) فى هذا البيت قلقلة فى الموسيقى وخير من ( ما خلق المقتدر ) ، فى  
 رأي ، ( ما أبدع المقتدر ) .

أردد صوت الطبيعة شعراً وتنقل عنها أجل الأثر  
مناظر هذى الطبيعة رسم وذهنك أنت إطار الصور (١)

إن الشاعر شارد النظرة لقيس النفس ، موزع الفكر ، تغشى وجهه  
سحابة داكنة . . .

. . . ما هذا الشحوب الذى نرى بوجهك بل ما هذه النظرات (٢)

. . . لقد بعث السؤال شجنه وأيقظ لواعجه . . .

يقاؤون ما هذا الشحوب الذى نرى بوجهك بل ما هذه النظرات  
تشرذ لحظى ثم غشته ترحمة كما غشيت شمس الضحى المزناات  
فلا تسألونى كيف حالى وما الذى عرانى وحسبى هذه الصفحات  
لقد جف من هذى الحياة ربيعها فلا عجب أن تبدل الوجنات (٣)  
وهو دائم التحنن إلى الماضى :

أحنّ إلى الماضى كما يذكر الحمى طليح نوى ترمى به الفلوات  
وأندب أيامى اللواتى تصرمت بشعرى إذا ضمنى الخلوات (٤)

دائمًا شعره . . . كما يغالى بالفن الفنان . . . وإسمّ نعجب وفى  
الشعر هناؤه وفى الشعر عزاؤه :

وفى الشعر تأساء وفيه رفاهة وفيه لقلب ياقظ نشوات  
أنيم به حزنى كما تبعث الكرى إلى عين طفل صارخ نغمات (٥)

( ١ ) قصيده « إلى مصور » .

( ٢ ) البيت كاملاً :

يقولون ما هذا الشحوب الذى نرى بوجهك بل ما هذه النظرات

( ٣ ) و ( ٤ ) قصيدة « شعر الدموع » ص ٣٧ - ٣٨ .

( ٥ ) قصيدة « شعر الدموع » ص ٣٨ - ٣٩ .

حزنه ؟ من نكأ الجراح ؟ .

« لقد ألفت نفسي الشقاء » . . . . إن الألفة هنا لا تكون إلا بعد  
مكابدة طويلة ورياضة أطول . . . . لقد ألفت الشقاء بل زاد فحمد له  
صنعه :

لقد ألفت نفسي الشقاء وإن يكن      أليماً فمن آلامه الخطرات  
وليس يجيد الشعر إلا معذب      تضرم في أحناؤه الحرقات  
ولو كان كل ناعماً في حياته      لما بهرتكم هذه النفحات  
فأهلاً بأحزاني وأهلاً بوحدي      إذا كثرت من نفسي اللهفات  
فإنهما أرعى وأبى مسودة      إذا فاتني أهل وعز لدات (١)  
وهكذا انتهى إلى قرار . . . . ولو إلى حين ! . . . .

وشاعرنا - ككل فنان - كله إحساس ، وهو يلمس ويدرك ويعيش  
بحسه هذا ، فلا غرو أن يغالى بقلبه موطن الإحساس ، فهو إذ يعدد  
غواليه يقول :

وفؤادى أعز ما أقتنيه      في حياة أعيش فيها بحسى (٢)  
وهو يقبس ألفاظه من شعلة إحساسه المتوهجة ؛ فحين نسمعه يقول  
للذى أهداه صورة الأمل . . . . : « أهديت لى حقباً من الأجل » نحس  
في « حقباً من الأجل » شحنة من الإحساس .  
ويصور الأمل فيقول :

كم مأمل بعث القرار إلى      نفس من الأقدار فى وجل  
وجلا من الأيام ظلمتها      فبدت وفيها متعة المقل  
إن « متعة المقل » هذه لا تصدر إلا عن نفس غنية بمعانى الجمال  
الفنى ، نفس تحسه بكل خالجة فيها ، إحساساً عارماً يلذها لذادة

(١) قصيدة « شعر الدموع » ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) قصيدة « خاطرة » ص ٤٨ .

تجهد في وصفها فيكون قصارها أن تسميها « متعة » وهي لفظة رويّة  
من الشعور . . .

•••

وأحياناً تتأزم نفسه تأزماً لا سرية فيه من أمل ولا شية من رجاء،  
وإنه لعلى هذه الحال إذ بصديق يهذى إليه صورة الأمل . . . وكان  
المأمول أن تنبسط نفسه للدلالة الهدية وإيحاء الصورة ، وقد خلته كذلك  
من استقباله للصورة الفنية التي يعدها « حقيماً من الأجل » ، ولكنه  
ما لبث أن تَزَاور عنها وهو يتمم :

لا شيء في الدنيا يحببني      فيها فأقطعها على مهل  
بعدت عن نفسي مطامعها      وشقيت بالأعلى من المثل  
ولقد غنيت عن الحياة بما      في خاطري من مشهد حافل  
وسمعت من أمل ملاحنه      حتى سمعت مناحة الأمل

•••

أجد البكاء وراء مقدرتي      والدمع راحة قلبي الشكل  
ما زلت والأيام ظالمة      أسقى الأسي علأ على نهل  
حتى إذا سبجت ملطوقة      ألفتها يوماً على طلل

ولكنه شاعر . . . وهو فنان يحس ديب الحياة في كل شيء حتى  
في الجامد ، ومن ثم انثنى إلى الصورة الجميلة بتأملها ويقول كأنه يعتذر  
إليها متودداً :

بالله يا قيثارة الأمل      ألا آمنت يواظ العلل  
ونديت بالألحان تشربها      نفس معطشة إلى بلل  
وملأت جو الصمت من نغم      فالصمت شرُّ بواعث الملل  
لولا المنى وبعيد مطلبها      كانت حياة الناس كالوشل

ورأى إذا ابتأس شاه لون المرثيات في ناظره ، وليس هذا بالشيء  
العجاب . فالإنسان في الحقيقة لا يرى بعينه فحسب ، ولكنه يرى أيضاً



obeykandl.com

بجوه النفسى الذى يلون الدنيا بلونه الخاص زاهياً كان أم كايماً . . . ألم تنكر ليلي بنت طريف على شجر الخابور إيقاعه بعد موت أخيها (١) وكان الأخلق به - فى نظرها على الأقل - أن يحزن معها ويشاركها أساها ؟ ألم يقل رامى فى قصيدة نهر الحياة :

والنفس إن تصفُ أمانيها طمى عليها المنظر الممتع  
وإن غدت مظلمة ما رأت فى ظلمة الأيام ما يسطع  
ألم يعلل ابن الرومى المرور بكاء الوليد تعليلاً كايماً من وحى جوهه ؟  
ألم يسأل رهين المحبين :

أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد ؟  
وكذلك فعل رامى مع البدر والنجم والطير والرعد (٢) :

كم أسأل البدر لم تصفر صفحته اللزمان وما تجنى دواهيته  
وأسأل النجم لم ترفض مقلته ألبكاء على آلامنا فيه  
وأسأل الطير لم ناحت نوائجها ألعويل إذا غرت أغانيه  
وأسأل الرعد إما مد قهقهته أساخر بالذى بتنا نرجيه  
من عيشة غر هذا الناس ظاهرها كما يغرّ سراب البيد رائيته

ولكن مما يعزينا أن شاعرنا كالنعمان لا يتصل بؤسه . وكذلك رامى لا تبدر جفونه فى مطلع قصيدة حتى يفتر عن ابتسامه فى آخرها ، تغرى بالمرح وتدعو إليه كما تصفو السماء غب المطر . . . فبينما يندر الشاعر بزوال الحياة :

إن الحياة فلاة أنت قاطعها وكلّ مرحلة يوم تقضيه  
إذ به يدعو إلى التمتع بها والاطمئنان فيها :

(١) تقول ليلي :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تحزن على ابن طريف

(٢) قصيدة « سر الحياة » ص ٣١ - ٣٢ .

فعاشر الناس بالحسنى وكن مرحماً  
وعزّ نفسك لا تحزنك نائبة  
جدلان والقلبُ قد عزت أواسيه  
ونم منام رخيّ الباك هائيه

ومرهفو الحس بعامة ، والشاعر بخاصة ، إنما مثلهم كمثل الروض ،  
فبينما هو يبكى بدموع الندى إنه به يضحك بأكام الزهر ، ويعنى  
بلسان الطير ويمرح في انسياب الغدير .

ورامى إذا تألم زهد في الحياة والأحياء ، وهرب من دنياهم إلى عالم آخر ،  
ولا يجد في شيء لياذاً كالوحدة التي يخلو فيها إلى نفسه بماضيها وحاضرها  
وظنونها وخواطرها وأوهامها ومشاعرها وآرائها ومذاهبها . وتراه في وحدته  
فتحسبه قد خلا وهو في عاصف يموج من الأحلام والخيالات والرؤى  
... وما الدليل ؟ ... إذن إليك هذه الأبيات من قصيدة  
« الوحدة » (١) :

رقد الساهدون حولي وعينى  
فإذا ما خلوت أسمع في الوحدة  
وأراني وقد غسيت عن الناس  
خلت أنى أعيش في عالم الأرواح  
آنستى نفوس من تركوا العيش  
من وفى أراق من خالص الروح  
وشهيد في مبدأ وقف العمر

ليس تقوى على انطباق الجفون  
نفسى وأستجيش حنينى  
بنجوى خواطرى وظنونى  
لا فى سلاله من طين  
وهم منه فى قرار مكين  
فسالت فى حب غير أمين  
عليه وكان غير ضنين

وإذا بلغ الضيق به مداه جار وبه من سانح الغضب عارض :

مرحّباً يا عوالم الروح إلى  
آلمتى الحياة فى هذه الدنيا  
ضقت ذرعاً بعالم مأفون  
فهل لى إليك من يهدىنى

ولكن صوت الشاعر يعمق وقعه حين يقول :  
أنت أنتى نفساً وأطهر روحاً  
فانتقىنى من بينهم وخذينى

أأنى هذا أخذ برّح به الألم ؟ : فانتقيني من بينهم وخذيني . . .  
 إن الإصطفاء لا يكون إلا للثمين المميز . ومن ثم يوحى تعبيره بشعوره  
 أنه غريب بين الناس ، وفي غير موضعه منهم ، غرابة النفيس بحسبه الجاهل  
 بعض تراب المنجم وهو تبره المنشود . . .

وشاعرنا يعلم من نفسه أنه موهوب . وإنما الذى يرتجيه دائماً هو  
 شاحذ لموهبة . وقد لحت هذا فى شعره أكثر من مرة . فتارة يقول مهيباً  
 بنهر الحياة أن يرويه وكل ظامى ليهتز ويربو :

لو كنت تروى ظمئى ما غدا  
 فالنفس إن تصف أمانيتها  
 وإن غدت مظلمة ما رأت  
 وأنا يقول . . .

شطتك لا يزهو ولا ينع  
 طمئى عليها المنظر الممتع  
 فى ظلمة الأيام ما يسطع<sup>(١)</sup>

شعلة فى قلبه لوهاجها  
 وحياة ملؤها المتحل ولو  
 هائج يسطع فى الدنيا ضياها  
 كدرم الناس قطفنا من جناها

وحين يظن أن الهاجرة ذرت أوراقه وصوتت أزهاره وأضاعت نشره ،  
 يلوذ ببناات الشعر يبيها شكواه ، وحين يطول السرار ، يرقى الهمس إلى  
 آذاننا رويداً رويداً . . . حتى لتسمعه يقول لها :

بنات الشعر ما أهلك عنى  
 دعيني يا بنات الشعر أبكى  
 أمسان متن فى قلبى صغاراً  
 وزرع طاب لم أقطف جناه  
 فكونى يا بنات الشعر أهلى  
 وغنى من أساك وألمينى  
 أراك بخاطرى وأود أنى

وماذا نقر الأشعار منى  
 على ما نالت الأيام منى  
 كما ذوت الكماثم فوق غصن  
 وكم بذرت يداى ولست أجنى  
 وأشياعى لدى البلوى وركنى  
 فبينك فى الهوى عهد وبنى  
 أراك بناظرى وأن ترينى

لقد تركتني الأيام نضواً      فبكيتني إذا همدت عظامي  
 ونوحى حول مقبرتي بلحني      عشقتك يا بنات الشعر حياً  
 أود من الزمان دنواً حيني      فلا تنسى عهدى بعد بيني (١)

وكل فنان يحس - مهما نال الشهرة والإعجاب - أنه مغبون . . .  
 تفسر هذا قصيدة رامي « النبوغ المقبور » :

زهرة أهدت إلى الريح شذاها      حين هبتت سحراً فوق رباها  
 أينعت إذ جنّادها صوب الحيا      وذوت من بعد أن جفّ نداها  
 وذرت أوراقها هاجرةً      فغدت مسلوبةً كلّ حلاها  
 صوحت لم يملأ النفس لها      عبقٌ أو يسحر الطرف سناها  
 هذه حال الذي عزّ على      نفسه الحرّة تحقيقاً منهاها

ويبدو شاعرنا متفائلاً أحياناً . . . أو هكذا تحدثنا ثلاثعُ  
 ديوانه . . . فقد رسم للحي صورةً رمزيةً في قصيدته « طيور الأمانى »  
 تلك الطيور الحائرة الحائمة تتشوف ولا تظفر ، وتهفو ولا تنال ، والحسبُ  
 كثير والماء دَفَق سائغ ، وهي في هذا النعيم غرثي ظمأى تقنات الخيال  
 والأمل حتى إذا دنت ، أقصاها عن الغصن المحمّل بالشمر ، حاصب ،  
 وصددها عن الغدير المصقول الصفحة قاس مناع . . . ويرصد الشاعر  
 هذا كله فيُشبهه له ، وتنبعث أشجانه فيقارن بين الطيور والناس على هذا  
 النحو :

هكذا نحن في الحياة نريد الصفو      فيها والصفو نأى الحباني  
 ونريد النعيم فيها ومن دون      منانا سَدّ من الحرمان  
 ونشيد البنا من الأمل السامى      وقأس الزمان في الجدران  
 ونبت البذور في الأرض والدهرُ      ضنين بالعارض الهتّان  
 ومن الزرع باسق جفت الأثمار      فيه وما جنتها يدان

ومن الماء دافق جفّ فوق الأرض ما مس قطره شفتان<sup>(١)</sup>  
ولكنه ما لبث أن تعزى . . . بيم . . . ؟ . . . بالأمل . . . وهل في  
غيره عزاء وتأساء ؟

قلنعش بالمتى فكم صدع البدر حجاب السحابة المدججان  
وانعش بالمتى فكم جرت الأقدار بالعر بعد طول الحوان  
وها هي تى بسمة ترف على الوجه المندي بالدموع . . .  
فارفعى الصوت بالغناء قليلا بدل النوح يا ضيور الأمانى  
« فارفعى الصوت بالغناء قليلا » . . . قليلا فحسب . . . إنه ليس  
خاليا ، ولكنه يسروح . . . عتل في الغناء عزاء . . .  
وهو عند ما يضيق بحياة الأحياء يلوذ بحياة الخيال ويروض قلبه  
عليها :

أخلد اليوم للسكينة يا قلب فانعم بها ديار مقام  
فانس برح الحياة من خيبة الحب ومن صحبة الرفاق اللثام  
لك من رنة التحرير أغان ناديات بأعذب الأنغام  
ومن البدر فى سكون الليالى سامر بالضياء والإلهام  
ومن الوهم والخيال ابتداء من تصاوير فكرى الرسام  
فاهجر الناس إنما لذة العيش حياة السكون والأحلام<sup>(٢)</sup>  
وكما يلوذ بالخيال من الناس ، يلوذ به من خيبة الحب الذى يسكب  
عليه هذه الدموع :

يا ريشة الوهم صبورى لى فى صفحة الحاطر الحزين  
ما جفّ من يانع جنبي وغاض من سلسل معين  
ويا طيور الخيال نحى فى دولة الليل والسكون

(١) « طيور الأمانى » ص ٨ - ١٠

(٢) قصيدة « حياة الخيال » ص ٢٦ .

ورجعني من صدى أنيني (١)  
 معتزلة أحياناً ، بالوجهة التي فيها نفسه وهو . ومحمومة وشكواه .  
 فيصمم في سمات الحجاب التي لا تلتصق به الختارده إلى التسييم بواقعها  
 على عذباته ، وهما في نفس السرور والهن من منابعها الصافية التي  
 لا كسرة فيها ترقى لتفاه . وأين هذه المنابع ؟ . . . في حوض الطبيعة  
 الغروب :

عند روضة وهدي صبور تناسخ وتغدير خريبر  
 يدكاه عند الأسيل من منها على الكون عسجد منشور  
 فتصع بما ترى من جمال الكون وانس الذي تكن الصدور  
 إنه ذلك كرناباني التمام والشباب وشعره عالمه جرم ما في شعرهم من روما نطيقية  
 وسنون إلى الطبيعة . وقد كانت روما نطيقية في ذلك الوقت هي المذهب السائد  
 في الأدب ، شعره ونثره ، وتنتشر نفسه لوحشة أحياناً :

الخير طال وجاء فهل أطالع فجره  
 وهل أظل غريباً كالصير هاجر وكره (٢)

وهو يتخزز الأعصاب ، شأن كل الحساسين المرهفين . . . ومن ثم  
 تراه موزع النفس بين ما في أسوان ، وحاضر لحزان متطلع ، ومستقبل  
 مجهول مرجح . متوهم لا يدري أكثر أريد به فيه أم خير يتهدى . . .  
 قد تقول : إنه لا يستقر على حال . . . نعم ، وهل حياة الشاعر إلا  
 قلق كلها ؟ . . . سمه الضاحك الباكي إذا شئت :

كم أفضى النهار تضحك سني راضياً بالحياة طلقاً جليداً  
 فإذا ضمنى التمراش نقليت عليه لا أستطيع هجوداً  
 وتر مطرب الأغاريد يبلى وهزار يرث الربيع نشيداً

(١) ص ٢٨ .

(٢) « أمنية » ص ١٤ .

كم دموع أرقنتها في ربي أعير من ظنوني في ثرائي زروني  
وبى يتسع حياض قروبي بحسب ناصح نشي مشهور (١)

ويصبت أحياناً فتذكر قصيدة نوسدة (٢) :

أقرء أكون صفحة استبين لرأى فيها وأستمدت فانسوي  
تسواني على خير من الحبابه كأي أثره نصب عيوني  
خالصاً من تكلف التراب من ناس من جهان وممن مضتوني

وهو وفي . . . . . وما يشاء رصيد بقاء كالماء بترت . . . . . وقت نظور  
زاهي يوماً فإذا صديق له حسنة الأبراج في بحر الحياة لتطويح به على  
الشاحيء الآخر الذي لا يفوز به إلا الأهلون . . . . . فقول :

كيف أرتياك يا رفيق شبابي  
أبدمعي ؟ ألمع أرخص ما يبكي  
أنت أولي بأن يبطل مثواك  
لحف نفسي كيف انطفأ ذلك النور  
ذف نفسي على غوارك قد قرء  
يا كبير الآمال هل هذه الرقدة  
أكذا تنطوي معالمك الغر  
ويروح الذكاء والمنطق العذب  
فجعتني فيك اللسان وقد كنت  
وأخى في مشاعري لك نجوى  
طار أبي لماً نعتاً وضافت  
وهو وفي إذا غدر المتوددون :

يا حبي عن شبيحة الأحمق  
به صاحب على الأصحاب  
بطل من التؤدة السداب  
بعينيك كأنطفأ الشهاب  
بجنيبك بعد طول اضطراب  
غايات روحك الدآب  
ويخبو سناك تحت التراب  
وحسن الأخلاق والآداب  
عقيدى وناصرى في طلابي  
وسرى في مشهد وغيباب  
بي دنيا كثيرة الأسباب (٣)

(١) « الوتر البالي » ص ١٩ .

(٢) قصيدة « الوحدة » ص ١١ .

(٣) « محمد تيمور » ص ٥١ .

إنْ يَغِبْ عَنْكَ مَعْشَرُ عَبْدُوا فِيكَ قَدِيمًا جَمَالَكَ الْفَتَانَا  
فَأَنَا الصَّادِقُ الْوَدَادُ إِذَا حَالَ مَحَبًّا عَنْ الْوَدَادِ وَخَانَا (١)

ويبدو أن شاعرنا من شيعة ابن المعتز انذى بلغ من رفته أنه كان يتلمس الجمال حتى في التبع فيهبواه . . . وزاى لم يكتف بالولاء للجمال الراحل بل وجد من مزهره وترأ يغنيه ويطب له بما يرقق من غناء :

ولقد يذبل الندى من الزهر ويبقى عبيره أحيانا  
ولقد يخفت الرخيم من الصوت ويشجو رنينه الآذانا  
ولقد تغرب المهاة وتكسو الأفق من بعدها ثيابا حسانا  
ولقد ينضب الغدير ويبقى زهره فوق شطه ألوانا (٢)

وهو بعد هذا رفات النفس : جياش الصدر : زاخر القلب والروح  
بمعاني الجمال المبتوث في الكون . حتى إذا طمى عليه الأسى حيناً ضاق  
بالسكون وهو الشاعر : فإذا بهذه الصرخة تند عن شفتيه وهو  
مجهود :

أين وحى الخيال والوجدان يستقى منه خاطرى ولسانى  
أسكوت والكونُ جم المعانى وسكون والنفس في ثوران (٣)

إنه يريد أن يملأ الجو غناء وتطريباً . إنه يود أن يودعه أساه ،  
ويبته شكواه ويُسَمِعُه أَنَاتِه رويّة شجية مسعدة على البكاء . . .  
هكذا يقول :

يا بنات الشعر انفحيني وغنيني بهوهاتي من شيقات المعانى  
لا أريد الرحيل عن هذه الدنيا ولم تمتلىء بيث جنسانى  
إن صعباً على المزهرة تبلى لا تنساغى على أكف القيان

(١) « الجمال الراحل » ص ٢٥ .

(٢) « قصيدة الأنغام السجينة » ص ٥٣ .

وشديداً على النفوس مداراة  
فاجعل أنتي رويماً فبعض النوح  
والخداء الرخيم في المهمة انقذ  
أساها بالصبر والكنهان  
أشجى من مضربات الأغاني  
ر عزاء فلعميس في الوجدان (١)

ولم يعلن مخاونه في قصيدة « الأنغام السجينة » وحدها ، بل إنه في  
قصيدة « نبعة الشعر » يعود إلى حديثها في كثير من الإشفاق :

إني لأخشى أن تموت عواظي  
وتقرّ نفسي بعد ثورتها فلا  
وترى مجال الكون عيني خالياً  
إني ليحزني بقائي صامتاً  
في الشعر تأساني وفيه رفاهتي  
فإذا سكت فقد حرمت شكايي  
ويحفّ ذلك النبع من أشعاري  
يحتاجها شيء سوى التذكار  
من بهجة الآصال والأسحار  
ولدي هذا الكثر من أفكار  
وإليه أشكو قسوة الأقدار  
ولرب شكوى نفّست أكداري (٢)

وهو يعرف دواءه :

ما أطلق الطير الشجي غناؤه  
أو نضر الزرع البهيج بساطه  
أو أرقص البحر الخضم عبابه  
مثل ابتسام الزهر والنوار  
كالشمس والماء النهر الجارى  
كالبدر يشرق باهر الأنوار

إنه يدور حول المعنى ولا يصرح به . . . إن الشاعر يهمس في  
خفوت كمن يحدث نفسه :

الحبُّ نبعُ الشعر منه تفجرت  
الحبُّ لحنُ النفس وقعه على  
الحبُّ يفسح في الحياة مراحها  
ولرب ساعة خلوة هفافة  
ولرب وجه أبعدت قسماته  
عينُ المعاني والخيال السارى  
وتر القلوب بنانٌ موسيقار  
ويحفها يبدائع الآثار  
طالت عن الأجيال والأعمار  
أبهى من الجنات والأنهار

(١) قصيدة « الأنغام السجينة » ص ٥٣ .

(٢) قصيدة « نبعة الشعر » ص ٥٤ - ٥٥ .

أول شعر يسمع أحيانا التي وأظننا في النفس كل مطار (١)  
 في روح الخفاء . . . . . في الخب . . . هو الداء وهو اللواء . . .  
 في عامر النفس بمعنى الخب حتى قبل أن يلقى الخبيب ويفتح عينه عليه  
 . . . . . معطر الجو بعيرى اخرى قبل أن يطالع روضه أو يقبل ورده . . .  
 إن الخب في نفسه منذ شب عن الشقوة الساذجة معنى عائم ، وخاطر  
 حاتم وشعور هاجر وخيال صناع . . . حتى إذا التى بالخبيب أول مرة لم  
 يعرفها . . . إن الشاخص أمامه المعنى بعد أن تحدد ، والخاطر  
 بعد أن تمزق ، والشعور بعد أن استقر . والخيال بعد أن تميز ، والظنون  
 بعد أن تجسست حقيقة . وتعمقت واقعا . . . هكذا - صور شعره . . .  
 اللقاء الأول :

لست أنساء إذا وفدت عليه وهو ما بين خاطري وظنوني  
 فإني روجه تصدق روجي قبل شدتي يمينه بيميني  
 وإذا الوجه ليس يغرب عني أنا شاهدته بعين يقيني  
 وإذا نحن قبل أن نبدأ القول حبيبان من طوال السنين (٢)

وقلبه ليس للهوى وحده . فهو يخفق مع كل خفاق . . . . . يستقبل  
 الطيار فيترأى له القلوب الواجفة التي ترقب عودة النسر المخلوق ، وبها  
 من الإشفاق أضعاف ما فيها من الفرح . ويحس الشاعر معها فلا يكاد  
 يسيه حتى يذكرها :

أرأيت الطائر المخلوق في الجو سلام عليك فوق المطار  
 سموت أعين ورفقت قلوب تسأل الله رحمة الأقدار  
 تقبلي لك السلامة في مسراك ليلا وغاديا بالنهار  
 تسأل الريح هل ألت خفافا يجناحيك أم أطافت ضواري

( ١ ) فصيحة « نبعث الشعر » ص ٥٤ - ٥٥ .  
 ( ٢ ) فصيحة « اللقاء الأول » ص ٥ .

وأرجاك من مهورى الزمان  
وأين السبيل فى الميزان  
حينئذ فى ربوع النيسابور (١)

وهو ودود . . . له فى مصر أخلاء : وفى الشام أعزاء ، وفى الشرق  
كله أحياء وأصفياء . . .

نقاء الأجراس والشمس وان  
أنس روحى ومستمر جنسى  
بكأنى من الهوى والزمان  
أساهم ورفهوا أحزاني  
خيالى فى سبع الوجدان  
وأودعته صنى يسانى  
ناظرى من بهاء تلك الهجانى  
لداى وإذا لفاكم لسانى  
وإذا بى نزلت فى أوطانى (٢)

تسأل البرق هل أضاء لك الأفق  
تسأل الفجر أين طاعتك اليوم  
تسأل النيل هل أصاخ لنجواك

وهذا بى إلى الشام حنين  
جمعتنى بهم ديارى فكانوا  
ضمنا مجلس الغناء فأرسلت  
ثم ساقيتهم ودادى وخففت  
هزنى الشوق للقاء فأرسلت  
ثم ناجيتكم بشعرى على البعد  
وقضى الله أن أراكم وأروى  
فإذا الدار منزلى وإذا الأهل  
وإذا بى حلت فى إحصوانى

ويزف التحايا إلى الإخوة فى الشرق . . . فيقول :

شوقه عن يمينه والشياخ  
ورفت أحلامهم فى خيالى  
من العمر ماثلات خيالى  
آيات من العلم والهدى والجمال  
وسهرنا على ضنساء ليالى (٣)

قل لهم ساكن على النيل يهدى  
لأحباء شاق نفسى أمانهم  
جمعتنى بهم على البعد آفاق  
من قديم أضنى على الكون  
أو حديث ذقنا رضاه سويًا

وإذا كان كل إنسان يحب وطنه ويتشوف إليه فى غربته ، فى تعلق

(١) قصيدة « عودة الطيار » ص ١٠٥ .

(٢) قصيدة « إلى سدة الشام » ص ١١١ - ١١٢ .

(٣) قصيدة « نجوى » ص ٩٦ .

وحزين فإن الشاعر المحب . يبلغ من هذا الحب أوج تمامه بما هيأته له  
فطرته من صفاء ودهنفة ووقدة . . . لقد سافر زامى إلى باريس فلم  
تله مدينة انور عن مصر الخبية الأم . . . وكان أن خابته الضفاف ،  
الحضر والنسجد المذاب وسواق النخيل وبواسق الشجر وهتاف الكروان ،  
وهداة الليل ولألاء البدر . وأق السماء :

تلك مصر فكيف ينساك يا مصر  
ويررف قلبه فيهتف من أعماقه :

أينما كنت أنت كعبة أملى  
وشبابي ضحية لك يا مصر  
لأنى فى ربك فتحت عيني  
وسقانى التدير من نيلك العذب  
وغسذاني ثراك فاشتد غربى  
فيك أهلى وفيك مثوى أبى  
ونواحيك رددت ما أفاض الحزن  
ومناحيك مسرح الفكر تجلو  
سمعت ضحكى صبيها وأصفت  
أنت وكرى الذى أحسن إليه  
فى سوى أرضك الكريمة لا  
وإذا طال فى البلاد اغترابى

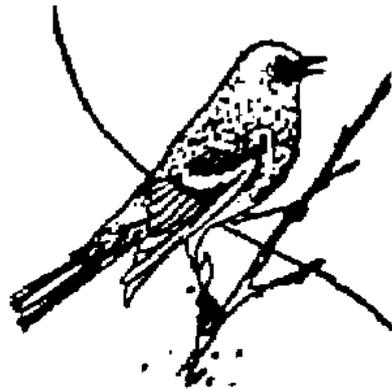
ووقف عليك طول اذكارى  
وعزت ضحية الأعمار  
فأبصرت أول الأنوار  
فروى تعطشى وأوارى  
وصفا وردى وطاب قرارى  
البر وهدى الخالصان من سمارى  
فى خلوتى من الأسرار  
لخيالى مآلف التذكار  
لنواحي يبيش فى أشعارى  
بعد طول الطواف والأسفار  
يخلو رواحى ولا يطيب ابتكارى  
فى سبيل الملا فانت قصارى (٢)

إذا تعاظمتنا هذا القدر من شعره فى موضوع واحد يدور حول شخص  
الشاعر ، وإذا أضفنا إلى هذا أن القدر الباقى من ديوانه أو معظمه إن هو  
إلا تراجم يبنى بها حبه وبيث هواه ، وقفنا على حقيقة من حقائق الدراسة  
وهى وضوح بل سفور ظاهرة « الأنا » فى شعره . . . فهو منكب على

نفسه يستعرضها ويستجليها ويتسمعها من ثم أسرف في الغناء لها . . .  
 على أنك تستطيع أن تعد هذه الظاهرة يعينها آية صدق الشاعر ، وشاهد  
 فنيته ينبع من نفسه ، فهو إذن لا يداجي في شعوره ، ولا يمالئ فيه  
 أحداً من الناس . فرائي لم ينظم في المدح أو الهجاء كما أشرت . وما ينبغي  
 أن تكون الشاعرية إلا صدقاً في الشعور والتعبير .

•••

هذه استشفافات وإيحاءات شعره . . . قد تكون صادقة تمام الصدق  
 تطابق الواقع وقد تزيد عليه . . . ولكن دارس الشعر لا يملك فيما يستعين  
 به من أدوات إلا أن يعايش الشاعر ، ويصغى إلى ديوانه . ثم يمضي بعد  
 هذا في دراسته مستهدياً أضواء أخرى تكتمل بها الرؤية وترشد الأحكام .



# ملكى والشمس كلثوم

راى وأم كلثوم ، أو القصة التى عشنا نسمع فصولها موقعة على الأوتار ويردها النخت بلسان صاحبته ، فيردد الناس وراءها الألحان ، أو حوادث القصة . . . :

طالما تساءل الكثيرون عن راى وأم كلثوم . . . فإلى هؤلاء قصة ( الشاعر والببليل ) . . .

حضر راى من الخارج يوم الاثنين ٢١ يولية سنة ١٩٢٤ . . . وفى يوم الخميس الموافق ٢٤ يولية سنة ١٩٢٤ دعاه صديقه السيد محمد فاضل ليسهر معه ، وكانت السهرة فى حديقة الأزبكية ، وكان فيها كشك أمام مدخل تياترو حديقة الأزبكية يعزف فيه عبد الحميد على . . . وفى هذا الكشك سمع أم كلثوم أول مرة . وكان رسم الدخول عشرة قروش . كانت تغنى بغير آلات . . . وأوعز إليه صديقه بعد أن أجلسه فى الصف الأول أن يطلب إليها قصيدته . . .

— مساء الخير ياسنى .

— مساء الخير .

— أنا حاضر من غربة ونفسى أسمع قصيدتى . . .

فقطنت إليه أم كلثوم وقالت « إزيك ياسى راى » (١) وغنت :

الصبّ تفضحه عيسونه وتم عن وجد شجونه (٢)

(١) هذه الواقعة بتواريخها وحوارها رواها راى أكثر من مرة فى أحاديث إذاعية .

(٢) هذه القصيدة من بحر قصيدة شوقى « ياناعماً رقدت جفونه » =

دخلت القصيدة المرغمة أذنه ، ودخلت في ركايبها أم كلثوم . . . قابله . . .  
 . . . وخرج من الحفلة هائماً يردد ما سمعه منها . . . فقابله في ميدان  
 عابدين الأستاذ - عبد الله حبيب الذي كتب عن هذه المقابلة سنة ١٩٢٧ (١) :  
 « في الهزيع الثاني من إحدى ليالي الصيف القمرية ، منذ عامين وبعض  
 عام ، في ميدان عابدين الفسيح ، والليل ساهم سادر ، والقمر يغمر  
 فضاء الله بنوره الوضاح ، والسكون ينشر ظله على الأفق ، فلا نامة  
 ولا حركة ، ولا روحة ولا غدوة . . . في تلك الساعة - ولا أنساها - إذ  
 أنا عائد إلى منزلي مع بعض الرفاق بعد سهرة طال بنا سمرها ، سمعت  
 صوتاً شجياً يرجع في الفضاء لحنًا خافتًا ، فتلفت أتبين موضع الصوت  
 فإذا شبح في ضوء القمر كالخيال الساري يتناوح بهذا اللحن الشجي . . .  
 ريح نفسي ! . أهذا وحى شاعر ؟ . فقلت لرفيقي : أسمعت ؟ . قال :  
 أجل . وكان الصوت خافتاً متواصل الترجيع ، لا تشك في أن صاحبه  
 إنما يرسله لشكواه وبثه . . . وأسرعنا الخطى . فلم نكد نستبينه حتى  
 صاح به صاحبي راى ! راى ! ! » .

ثم سافرت أم كلثوم في اليوم التالي إلى رأس البر ، فأكد البعد  
 حبه ، وأشعل خياله . وانتظرها أربعين يوماً حتى عادت . . . وأعلن  
 عن حفلة لها في البسفور فهرع إليه . . . فما إن رآته حتى غنّت للمرة  
 الثانية . . . « الصب تفضحه عيونه » كانت تحية ، وكانت عود ثقاب .  
 ثم زار راى أم كلثوم ، وكانت مقبلة على ملء أسطوانات أوديون ،

== محاكاة له من إعجاب . وقد غنى قصيدة «الصب تفضحه عيونه» قبل أم كلثوم  
 الشيخ أبو العلا محمد أول من غنى شعر راى .

(١) من مقالة للأستاذ عبد الله حبيب في صحيفة النواب بتاريخ

فراجع لها الأغاني وهذب بعض ألفاظ فيها . . .  
 كانت أم كلثوم التي شاهدها راي سنة ١٩٢٤ لأول مرة فتاة ذات  
 عقل تغني وتبكي ، وكان شاباً شاعراً دفاق الشاعر ، شجى الحسن . . .  
 وكطبع الحب دائماً يبدأ بعطف من الرجل ، وينتهي بعطف من المرأة ،  
 بدأ حب راي لأم كلثوم . . . وبدأت أغانيه لها وللغناء المصري الجديد في  
 الوقت نفسه :

تمرض الحبيبة فيقول الشاعر :

يا الى جفاك المنام  
 النوم على حرام  
 عليل أليف السهاد  
 وانت ضريح الوساد

وتسافر فيقول :

أيها الفلك على وشك الرحيل  
 رنقرت عيناي لما  
 وبكى قلبي مما  
 إن لي في ركبك الساري خليل  
 قال لي حسان السوداع  
 ذاع في الكون وشاع

ويشتاق فيرسل إليها عرض البحار :

اذكرني كلما الفجر بدا  
 يبعث الأطيبار من أوكارها  
 قد سهرت الليل وحدي  
 وانجلى الصبح وهلا  
 ناشراً في الأفق أعلام الضياء  
 فتحبيه برديد الغناء  
 بين آلامى وسهدى  
 وانطوى الليل وولى

وتصله وتدعوه فيقول :

رق الحبيب وواعدني يوم  
 حرمت عيني الليل م النوم  
 وكان له مسدة غايب عني  
 لا جل النهسار ما يطمني

صعب على أنام أحسن أشوف في المنام  
غير اللي يتمناه قلبي

وتجدد العهد بادئة ، وتسخو في البذل على غير انتظار فيقول :

جددت حبك ليه بعد الفؤاد ما ارتاح  
حرام عليك . خليه غافل عن . اللي راح

ويسمع الكثيرون الأغاني معنى ولحنًا وصوتًا فحسب ؛ ولكن العارفين  
يدركون ويتسمون ؛ ثم يجمعون خيوط القصة الطريفة ويعرفون الحديد من  
أخبارها . . . .

فتحت أم كلثوم عينها على حب شاعر ومعان جديدة لم يكن لها بها  
سابق عهد . . . . كانت ذكية لم يغب عنها ما في هذه المعاني ولا ما وراءها ،  
فلم تتردد في هجر أغانيها الأولى التي كانت تحمل طابع العصر المغرم  
بالستائر والشاطر والقناطر ، وتلقفت الأغاني الرقيقة وراحت تترنم بها في  
كل حفل . . . . وتعلق الناس بالمغنية والشاعر .

إن من يقرأ شعره فيها يلمح أن أبرز المعاني وأكثرها وروداً معني  
« الملهمة » الموحية فهي منه بمثابة النموذج من الرسام . . . . نقرأ معاً من  
قصيدة « إلى سومة » :

وأرسل المكنون من أدمعي	صوتك هاج الشجو في مسمعي
للشعر عين ثرة المنيع	سمعته فانساب في خاطري
قلب شديد الخفق في أضلعي	سلوى من الدنيا تعزى بها
منحدر من دمعي الطيع	كأنما لفظك في شدوه
يشكو تباريح فؤادي معي	فيه صباياتي وفيه الضني
منظومة الحبات من مدمعي	نظمت أشعاري وغنيتها
صوتك يسرى في مدى مسمعي	حسبي من الشعر ومن نظمه

عنى وشئتى الدمع يرو الذى قد جف من نفسى ولم ينع (١)  
ثم أحب الفنان الرسام: النموذج. وعشق الشاعر الحزين، الصوت  
المسعد، فهواه بعد أن استوحاه ومضى يهتف (٢) :

يا من شدت بنسب	ناجيت فيه حبيبي
ورددت من شكائي	ورجعت من نحبي
فجرت عين خيالي	من بعد طول النضوب
أنت حزن فؤادي	بصوتك المحبوب
وكنت مألّف حسي	وظل روحى الغريب
شاطرتني ما ألقى	في العيش من تعذيب
وكنت في البث عني	شريكتي في نصيبي
فخف عياء همومي	وهان حمل خطوبني

ولما كان الفهم النفسى أسرع الطرق إلى الحب . فلا غرو أن يقول  
الشاعر بعد هذا :

وآنس اليوم قلبي نجيت في القلوب (٣)

وهنا تبدأ القصة التي تسمر بها القاهرة والمدائن في مطالع الشهور  
... لا ... لست أنا التي أرويها لك . . . لقد تضمنها ديوانه . . .  
إن القصة ترويها قصيدته « يقظة القلب » (٤) :

أيقظت في عواطفى وخيالى	وبعثت منى ميت الآمال
واثرت نفسى بعد طول سكوتها	في حين لم يخطر هواك ببالي
وحببتنى أصبحت جمرأ هامداً	وظننتنى أحيا بقلب خال
فإذا ببحك حاج ما عفتته	وأجدد لي الوجد القديم البالي

(١) هذا البيت جاء على لسان ابن زيدون في مسرحية رامي « غرام الشعراء » .

(٢) قصيدة « إليها » ص ٧٠ .

(٣) قصيدة « إليها » ص ٧٠ . (٤) ص ٧١ .

وغلوت أشقى ما أكون تنعمًا  
 أنسيتى الماضى بما أودعته  
 ومحوت من فكرى الذى قاسيته  
 فرضيت ما قسم القضاء وما انطوت  
 وغنيت عن نعمى الحياة وطيبها

بهواك لما دبّ فى أوصالى  
 من حزن أيام وسهد ليالى  
 فى هذه الدنيا من الأهوال  
 نفسى عليه من الأسى القتال  
 بشقاوتى فى الحب واسترسالى

والبيت الأخير الذى ميزت مقاطعه بخطوط يمثل بداية طور جديد فى حياته ، وبداية طور جديد فى فنه ستناقشه بعد قليل .

أما شقاوته فى هذا الحب ففنها تمزقه « بين الشك واليقين » . . . .

لقد بدأ يترنح فى دوامة تحكى عنها هذه الأبيات (١) :

قد أحاطت بك العيون فما أملك  
 وجرت حولك الأحاديث حتى  
 وأطافت بك القلوب وقلبي  
 خبر بى أى القلوب تنساجين  
 أى نفس سبرت غور هواها  
 فتغنيت كى تنيمى أساها  
 وتبادلتما الهوى بعيون  
 هى نفسى ؟ قولى أقرى شجاها

ألقى مكان عيني منك  
 كدت أنسى الذى أحدث عنك  
 ضاع فى غمرها ولما يضعك  
 فقد همت فى غيابة شك  
 وتحديت سرها بالهتك  
 نومة الطفل بعد طول التشكى  
 تتلاقى بالغيب خوف التحكى  
 وأببى عن سر نفسك تلك

مرة أخرى تحس قلقاً فى موسيقاه ، وهو الذى يترقرق فى مواضع أخرى كماء الغدير . وسنلتقى بهذه الطبقة من الموسيقى فى الصفحة التالية من قصيدته « فى البعد والقرب »

أم نفوس حسبت فيها وفاءً  
 وتوهمت حبهـا دون شرك  
 أو تحسبه قد استراح أو رقى إليه جواب ؟ لا . . . وإلا لما عاد ثانية

يقول (١) :

أخاف عليك من نجوى العيون  
وأشفق أن تخادعك المعاني  
وأعلم ميل نفسك أن تكوني  
فأخشى قولة العذال مات  
وما أوليك من دمعى وسهدى  
أقدمه وبى خجل أعمانى  
وهل عزت على نفسى حياة

لقد لجج به الهوى الآن فلم يعد العذاب يشيه .

وقفت على هواك مطار فكرى  
ووجدت المعانى فيك حتى  
فهل يرضيك ما ألقى فأرضى  
وأطلب فى الشقاء عزاء نفسى  
أم الظن المرعب أضلّ أرشدى  
وأنت كما عهدتلك فى غرامى

وصاحبة الصوت صاحبة دلال يتجنى ، فهى تتحكم وتستبد ،

(١) قصيدة « كذب الظنون » ص ٧٣ .

(٢) يقول رامي فى « غرام الشعراء » على لسان ابن زيدون لولادة :

تعالى نفن نفسينا غراما  
أرتل فيك أشعارى وأصغى  
وأنظم فيك من حبات قلبى  
وأعلم ميل نفسك أن تكوني  
وهل تجدين صبأ مستهما  
يجبك للهوى والشعر دونى ؟

(٣) ص ٧٣ .

وكانها هند تستجيب لابن أبي ربيعة<sup>(١)</sup> ، وإلا فماذا تفسر أبيات الشاعر هذه ؟ :

لو كنت نائية المزار بعيدة  
وحملت برح البعد حتى تنقضي  
فأنال من لقياك ما أحيا به  
لكنني اعتدت اللقاء فأصبحت  
فإذا التمسك ثم لم أظفر بما  
أحسست فقدان المنى وحرمت في  
وخطوت أيام الفراق لأنني  
وهي تحاوره حوار من يستدرج عن قصد ، ويتخابث عن دلال ،  
لأنه يعلم ويوقن أنه محبوب معشوق :

شكت سهراً وفي عيني  
فقلت لم أتم ليلاً  
وقلت سهدته حتى  
وحيداً بين سمار  
قضيت الليل محروماً  
دليل السهد والسهو  
قطعت مداه بالسم  
نشقت نسيمه السحر  
من الآمال والذكر  
متاع السمع والبصر<sup>(٢)</sup>

هذا بعينه ما تود أن تسمعه وتبحث عنه . . .  
وأنت قضيتيه مرحباً وما تدرين ما خبري  
هي تعلم هذا ، ولكنها تستمرى عذابه طبيعة المعشوق . . .  
سهدتُ وكنت ساهرة وليس السهد كالسهو

(١) الإشارة هنا إلى بيتي عمر بن أبي ربيعة .  
ليت هنداً أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا مما تجد  
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد  
(٢) قصيدة « في البعد والقرب » ص ٧٥ .  
(٣) قصيدة « بين السهد والسهو » ص ٧٦ .

ويل للشجى من الخلى ! . . .

ولكن حب شاعرنا ليس من ذلك اللون الذى يولده نجل العيون ورشاقة القوام أو النظرة والابتسام . . . إلخ قائمة المشهيات . . .

كلا . . . فمثل هذا حب دارج يتكرر فى كل يوم وليلة ، فى كل صقع وجبل ، لأنه وسيلة الحياة إلى الاستمرار . . . ولكن حب شاعرنا حب فنان . . . حب وراءه غاية أبعد من رغبات الحس أو شهوات الجسم ، إن همّ رامي كله أن يكون شاعراً موصول النغم . . . فهو يبحث بمصباح ديوجين عن موطن وحى ومبعث إلهام . . . وبالطبع ليس كالحب حافز للشاعرية ، وليس كالحب مرسل للشعر . . . إنه بتعيمه وشقائه « عين للشعر ثرة المنبع » ، كما يقول رامي . . . فما بالك إذا كان المحبوب صاحب فن ، والمحب شاعراً فناناً . . . هنا تتراقص عرائس الشعر على عزف المزاهر وحنين العود . . . ويبدو أن الموسيقى أقرب الفنون إلى الأدب . . . لأن رامي من ديوانه، يعشق الصوت الجميل أيّاً كان صاحبه . . . من النساء أو الرجال . . .

أشاد بعبد الوهاب فى أبيات لو أنها قيلت فى امرأة مغنية تقطعت

بأنها غزل صريح !! ! فن شعره فيه (١) :

وفؤادى خفافق بين يديك  
خفق قلبى ريشة فى أصبعيك  
واشج من قبل سماعى مسمعك  
يجناحى طرب من شفّيتك  
حيث يسرى بك ساجى ناظر بك

هذه روحى أنا تصغى إليك  
فاستمع تطريب نفسى واتخذ  
ثم رجع من أناشيد الأسى  
وأطل إن غناء ساريا  
يحمل النفس إلى دنيا المنى  
وصالح عبد الحى عنده :

ويدعو الأرواح أن تستهاما  
يكسب الزهر نضرة وابتساما

صاحح يبعث الشجون إلى القلب  
أرسلته الأيام طيراً شجياً

شب في بهجة الزمان وناجي  
كلما شاق الجمال تغنى  
وهو يسقى الأسماع سحراً حلالاً  
مضطرب الحى عاش للحى بصوت  
فيه ذكرى الخوى وعهد التصاني

بسمات الربيع عاماً فعماً  
فسمعنا غناء إهاماً  
يجعل النوم في العيون حراماً  
قد حلا رقة وطاب انسجاماً  
وزمان ضم المنى والغراماً<sup>(١)</sup>

وعلى هذا النسق وصف رامى صوت أم كلثوم . . . وليس هذا  
فحسب ، بل إن رثاءه لسيد درويش وأبي العلامحمد ومحمود صبح ، ووقوفه  
بالوصف المبدع عند ألحانهم وأصواتهم وأدائهم ، وأساه  
عليهم ، لينم عن هيام خاص بالصوت الجميل أيضاً كان صاحبه . . . وقد  
عاش رامى شبابه في رفقة من طرازه يخفون إلى صاحب الصوت في أى  
وقت ، ويسعون إليه في أى مكان ، تتحلق منهم حواه الندوة ، وتتألف  
منهم لرامى السمار والندامى مما مد له في بساط المتاع ، وأغراه بالسهر  
والاستماع . . . وهكذا عاش شبابه بل عمره كله . . . رجل فن ،  
وأنيس سمر ، وسمير حفل ، وعاشق صوت ، وصائح شعر . . . وأنت  
لا تكاد تذكر له طرفاً من حديث هؤلاء حتى يتمم قائلاً :

يوم كنا نهم في جنة الدنيا ونقضى شبابتنا أحلامنا  
لا نرى العيش غير كأس وزهر حسنا منظرأ وطابا شماما  
فشربنا على سماع الأغاني سلسلا ترك الهموم يتامى  
وسمونا على جناح الأمانى فاتخذنا بين النجوم مقاما<sup>(٢)</sup>

إذن الصوت هو السبب أو البداية في أم كلثوم . . . على أنه ليس  
وحده . . . يضاف إلى هذا رغبته المألحة الطاغية في قول الشعر بل  
الفيض به ، والانتساب إليه ، والتفوق فيه . . .

أحبك كالطير الذى يستخفه إلى النوح والترجيع برد ظلال

(١) ، (٢) قصيدة « صالح عبد الحى » ص ١٠٧ - ١٠٨ .

أحبك كالآمال لاح بريقها  
 فضاءت بها نفسى وأشرق بالى  
 أحبك كالبلدر الذى قاض نوره  
 على فيح جنات وخضر تلال  
 أحبك كالنسمات هبت عليه  
 فأدت إلى قلبى رسائل حالى (١)

إنه حب عارم ! . . . نعم ولكننا نبتم حين يفضى إلينا بالسر :

أحبك لا ، بل أعبد الشعر والهوى  
 جمعتهما معنى يشوق خيالى  
 ويملى على فكرى الذى لا أقوله  
 وقلبي من الوجد المبرح خال  
 منطوق . . . ولكن المتنبي قال شعره ولم يحب حباً رومانظياً  
 حتى غدا غزله أقل فنونه بلخفاف عاطفته فى هذه الناحية (٢) .

وأحسب أن « راحى » حين تعلق الصوت والشادى لم يرسم خطة ولم  
 يخطر بباله هذا السبب الذى يقول به فيما بعد ، مدفوعاً بكرامة  
 الحى أو عزة الفنان أو غضب عارض . . . إن الحب يولد كالشرارة  
 ولا يوضع كالخطة ا .

هنا مزيد من تعليل :

هويتك لم أطلب مساجلة الهوى  
 فأسمى الهوى ما كان غير سجال  
 صلينى وإلا فاهجرينى فإننى  
 أحبك فى هجر وطيب وصال  
 جعلتك همى فى الحياة وشاغلى  
 ويا شد ما ألقى ولست أبالى  
 إذا كان فى حبي سبيل إلى العلا  
 إذن هان فيه من دموعى غال  
 وما ذروة المجد التى امتد دربها  
 على حرّة حزن ووعر جبال  
 سوى روضة الأشعار وشع ظلها  
 أفانين أفكارى وزهر خيالى  
 وأنت بذاك الروض بلبله الذى  
 يرجع فى مغناه عذب مقالى  
 بعثت فنون الشعر فى فصغتها  
 وغنيتها لحن الهوى فحلالى (٣)

( ١ ) قصيدة « غرام الشاعر » ص ٧٧ .

( ٢ ) إلا إذا كان الشاعر يقصد بالشعر ، الشعر الغزلى الدائق فهذا

لا ينبعث إلا من عاطفة مشبوبة .

( ٣ ) قصيدة ( غرام الشعراء ) ص ٧٧ .

لم يبق موضع للشك الآن . . . أليس كذلك ؟  
وهو لا يكتم عنها هذا المعنى ، بل يجهر أمامها به حتى حين  
المناجاة . . . فيينا هو يناشدها مدلولاً :

تعالى تقن تقسینا غراما  
أرتل فيك أشعاری وأصغى  
وأنظم فيك من حیات قلبی  
حُرْمَتُكَ هيكلا ونعمت وحدى  
بعادك شاغلي عن كل فكر  
وهجرک فيه تشویف الأمانی  
ونخلد بين آهة الضنون  
إلى ترجيعك العذب الحنون  
معاني الوجد والحب الحزين  
بروحك أستبيه ويستبينی  
وقربك مُرْكَبِي بحر الظنون  
ووصلك باعث نور اليقين (١)

بينما يسترضيها بهذه الرقة إذا به يصارحها قائلاً :

جلوت لناظري روض المعاني  
وردد من غنائی فيك حتى  
وهل أستاف أنفاس المغانی  
وهل تجدین صبياً مستهاماً  
ويبعث فيك روح المجد طالت  
روح المجد . . . دائماً المجد . . . المجد . . . هو الذي يستحته  
ويعنيه . . .

لا ، بل إنه يذهب في سبيل هدفه واقتناص شوارذ المعاني لشعره إلى  
حد لا يرى معه بأساً أن يهواها بعض أصحابه !! ليتخذ من الغيرة  
والغضب والعتاب وسائر المشاعر التي تنجم عن مثل هذا الموقف وقوداً  
للنار المقدسة التي ينضج عليها شعره . . . ماذا تريد بعد هذا ؟ ماذا  
تريد أبعد من قوله :

إني خلعت عليك ظل شبابي فإذا هواك مني ولع سراب

(١) و(٢) قصيدة « تعالى » ص ٧٨ . وقد سبقت الإشارة إلى  
ورود هذه الأبيات في مسرحية « غرام الشعراء » .

أستمرى الأحران فيك وأستقى      من دعوى اذامى كئوس شرابى  
 هبان أطلب من يهدى سورنى      وأريغ من يهواك من أصحابى  
 فنظل نستبق الحديث عن اذوى      من غيرة وتغضب وعتاب (١)

لراى فى الحب حالات قد يلدو بعضها غريباً ، فهو يسمع إلى  
 حله ينفض معه الغيرة وقليلها من لوازم الحب يؤكد معناه وينعش روحه ...  
 ولكنك تعجب حين تسمع رأى ، يناجى حبيه :

كيف لا تنعم العيون بمسراك      وتشجى بصوتك الأذنان  
 أنت ضنى ولا أضن على الناس      بمراى جمالك الثنان  
 كل من يفهم الجمال حرى      بتناع العيون والوجدان  
 وحرام على أنى أذود الطير      أن تستنظل بالأفنان (٢)

وهو يلح دهشتك ولا تخفى عليه فيتسم قائلاً :  
 غيرة النفس أصلها الخوف من ميل      حبيب إلى محب ثان  
 فإذا ما أيقنت إخلاص من      تهوى قطعت الشكوك بالإيمان  
 ثم يلتفت على عادة الشعراء ويقول :

فدركت الأنام فى طرب الإعجاب      بالنوق فيكما والمعانى  
 لك فخر أن حبها لك دون الناس      مهما حالت وجوه الزمان  
 وثناء الدنيا عليك لما اخترت      هوى دون فائنات الحسان

على أى حال يتم الشعر عن أن ليلاه صاحبة صوت « تشجى با  
 الأذنان » . . . وهو يعرف أن حجبها عن العيون محاولة غير ناجحة ،  
 إذ كل ميسر لما خلق له . . . إذن يستعلى على الغيرة ! . . . ولما كان  
 يحس فى قرارة نفسه قسوة موقفه فقد راح يدحض عن كرامته الحرج ،  
 ويسوغ موقفه بدعوى اليقين من إخلاص الحبيب والإيمان به . . .

(١) قصيدة « دمة مكتوبة » ص ٨٢ .

(٢) قصيدة « أنفيرة » ص ٥٦ .

ماذا أقول؟ قد يرزق المرء الحكمة برغم أنفه .. ولكن هذا ليس من طبائع النفوس؛ ولا أدل على هذا من أنه عاد فوخزته الغيرة وخزة أطلقت هذه الآهة :

ساورتني الظنون فيها ولكني  
ثم ساءلتها أتحمّل عني  
فنتت طرفها وقالت أما تبرح  
كلنا سيء الظنون وما أحسب  
إنما يغتلى ارتياب الذي يهوى  
والذي خاف ضيعة الحب لا

غالبت سوء ظني حينما  
بعض ما ذقت في هواها فتونا  
يا ظالمي تسيء الظنونا  
إلا أن الأمانة فينا  
إذا كان بالحبيب ضنيناً  
أحسبه في هواه إلا أميناً<sup>(١)</sup>

ورأى المحب لا بأس عنده من البعاد القصير المدى يجدد الحب ،  
ويروّظ رواقده :

غبت عني من قبل هذا ولكن  
أتعزى بما تمنين من وعد  
وأريغ القصد النبيل بما يعثه  
فإذا ما لقيت وجهك جددت  
وتزودت ما أطبق به الصبر  
هذه نعمة البعاد إذا خالطه  
فإذا طال طال بي اليأس واليأس

كان لي رقة اللقاء الداني  
وما أستطيب من نشدان  
الحب من بعيد الأمانى  
طماحى إلى العلا واستناني  
على ما حملت من أحزاني  
القرب بين آن وآن  
سبيل تفضى إلى النسيان<sup>(٢)</sup>

ولكنه وفي لا يتطرق إلى قلبه سلوان ، رقيق لا يقوى على نسيان :

وعزير على أنى أنساك  
إنه صفوة الحياة وهمل أقرب  
نرتضيها رتقاً فكيف تناسى  
والذى الذى فأت من زمان هان

وأنسى الذى مضى من زمانى  
منها هوى إلى الإنسان  
الذى فأت من زمان هان

(١) قصيدة « ظن المحبين » ص ٥٧ .

(٢) قصيدة « حيرة النسيان » ص ٥٨ .

صورته يد الخيال على الخاطر  
وقعته أوتار قلبي بالشعر  
هاتفاً في فضاء صدرى طوراً  
ولهذه وتلك عندي شجو

فإذا دب الملل بينه وبين الحبيب فلا يسلم به ، ولو من ناحيته على الأقل : إذ يشي وصفه بحسرتة ويؤكد حبه الصادق :

دب ما بيننا الملل وما أذهب  
أصبح القرب والبعدُ سواء  
ثم جازيتني على صدق حبي  
وقصاري الغرام في قلب من

هذا المعنى الأخير يروعه ويهوله حتى ليصرح بخوفه منه (١) .

وهو يتعزى بالوفاء عن كل شيء . . . عن اللقاء والتداني :  
خبريني على العهد تقيمين  
وأرانا وقد تراسل روحانا  
وتعتريه أحياناً حيرة فيزفر :

وأدري الخلاص مما أعاني  
النفس عمرى بنعمة الإيقان  
بقاس في الحب أو خوآن  
وكنت الوفي في الهجران  
لك الحب حيرة النسيان (٢)

ولشاعرنا حين ينسى ، أو يريد أن ينسى ، أو يزعم أنه سينسى ،

(١) أغنية رامي الشهيرة .

خائف يكون حبك في شفقهِ عليّ  
وانت اللي في الدنيا لي ضي عينيه

(٢) ، (٣) قصيدة (حيرة النسيان) ص ٥٨

صورة طريفة تروقك ، لأنها تضحكك وتبكيك معاً . . . يضحك منها  
التحدى الذى يتناول وهو لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، وكيف  
وهو مسلوب القلب والإرادة ؟ ويضحكك منها المكابرة التى ترتد لساعتها  
مغلوبة وهى تحسب أنها قطعت فى النسيان شوطاً إلى الإمام . ويبيكيك  
فى الصورة الطريفة مريض الهوى الذى يخال النسيان دواء فإذا به  
أنكى عليه من الداء « حتى غدا من فرط ذكره همومه » . يبكيك العاشق  
الذى يريد أن يسلو فيهبو ، أو يقسو فيحنو ، ويكون قصاراه من مشروع  
النسيان أن يهدر ألفاظه فى صيغ شتى من مثل : أسلو فأنسى - التناسى -  
ناسياً ونسيت - النسيان ؛ ليؤكد معنى النسيان فى نفسه ، ثم انتهى به  
المطاف إلى « الحنين للحب المقيم » ! :

هجرتك علّنى أسلو فأنسى وأطوى صفحة العهد القديم  
وغالبت التناسى فيك حتى غدا من فرط ذكره همومى  
ذكرتك ناسياً ونسيت أنى أريد البرء للقلب الكليم  
وكنت أحاول النسيان جهدى فصرت أحن للحب المقيم<sup>(١)</sup>

ذكرتك ناسياً ! . . . يريد أن ينسى فيتذكر ، ما أشبه قوله  
بالتدليل منه بالهجران : وغير ملوم فهو مسلوب الإرادة كما قلت وأغنية  
( هجرتك ) بعد هذا أوسع تفسيراً ، وما يفعل الهزار السجين ؟ لاجلة  
له ولا مناص :

روحى جنيت عليها لكن بغير اختيارى  
لو كنت أعلم أنى أشقى بهذا الإسار  
إذن لأطلقت قلبى فطار كل مطار  
وهام فى كل روض حال من الأزهار  
وعب فى كل جار عذب من الأنهار<sup>(٢)</sup>

(١) قصيدة « ذكرى النسيان » ص ١٧ .

(٢) قصيدة « الهزار السجين » ص ١٨ .

obeykandl.com



ولكن أنتى له هذا؟ وهل يُرجى السلو ممن يقول :

مألى إذا غاب عن عيونى      بكت على بعده عيونى  
وإن أردتُ البعاد عنه      أصبحت أدنى إلى الجنون  
أقول من يا ترى روى<sup>١</sup>      يشرب حسن الحبيب دونى  
وأى أذن إليه تصفى      تلتقط من دره الثمين<sup>(١)</sup>

عجباً! إن الشاعر الذى يقول : « عزة جمالك فین من غیر ذلیل  
بهواك » . . . . . يرعد ويبرق . . . . . وإن ثورته عاصفة . . . . .

من أنت حتى تستبيحى عزى      فأهين فيك كرامتى ودموعى  
وأبيت حران الجوانح صادياً      أصلى بنار الوجد بين ضلوعى  
أعمى عن الحسن الذى هامت به      نفسى وطال إلى سناه نزوعى<sup>(٢)</sup>

ترى أى حسن؟

وأضم عن نغم عشقت سماعه      أيام كان القلب غير سميع  
وهو فى ثورة الغضب يقول إنه أضنى عليها من شعره ، ورطب  
لسانها ببدائع الكلم ، وروائع المعنى ، ويوانع اللفظ ، ومنضد القصيد . . . . .  
لما حفز الملحن إلى الارتفاع وأغراه بالإبداع ليتساقق اللحن مع اللفظ  
التياء ، ويتواءم النغم مع اتوشيع الشعر وفن الشاعر . . . . .

إنى كسوتك من خيالى حلّة      وشعت صفحتها بزهر ربيعى  
ونشرت من روحى عليك غلالة      كالليل آذن فجره بطلوع  
نديت جوانبه ورق نسيمه      وأرن فيه الطير بالترجيع  
وأجلت فيك طبائعى فشربتها      ووردت منهل شعرى المطبوع  
وسمعت همس خواطرى فحكيتها      لحناً يشوق النفس بالتوقيع  
ووصلت من عيشى بعيشك حقبة<sup>٢</sup>      شاركتنى فى ذكرها المرفوع

(١) قصيدة « الذكري » ص ٢٨ .

(٢) قصيدة ( ثورة نفس ) ص ٧٩ .

« شاركتني هذا توحى أنه الأصل (١) .

يا زهرة أنصرتهم ورعيتها وسقيت تربتها زكى نجيعي  
ليست هذه مناجاة . . . إنها أنة جديدة . . . إن الشاعر  
يتحسر . . .

أو تحسبه بعد هذا كنه قد سلا ؟ . . . كلا وإن كان يزعم أنه  
يجب الحب ذاته أكثر من شخص الحبيب ! .

أهواك ما دام الخيال يمدني من وحي حنيننا بكل بديع  
وأطيل أرضك ذوب قلبي راضياً ما دمت في ظل الهوى ينبوعى  
الإلهام . . . مادة للشعر . . . رقد من الوحي . . . هذه هي المسألة .  
فإذا ذوّبت مع الزمان وأقفرت نفسي وأقوت من شذالك ربوعى  
هاجرت أطلب في الرياض خميلة تندى على بيانعات فروع  
فتفيات نفسي رطيب ظالها ونسيت سالف ذلتى ونخوعى  
أرأيت ؟ . . . إنه لا يبالي ، أو هكذا يزعم . . . إنه يلتمس الحب  
ابتغاء صوغ الشعر وتلوينه بألوان القلب الغنى بالألوان . . .

إن الشاعر حائر ، وإننا أيضاً حائرون من أمره ومعها ، تارة يتسمح ،  
وأونة يسلم بموقف صاحبه ، وأزناً يغضب . . . إنه « غرام الشعراء » .  
لقد سلسل رامى قصته مرة أخرى في مسرحية جعل بطلها هذه المرة  
الشاعر ابن زيدون ، والبطلة « ولادة » - بنت المستكفي بالله - التي لم  
يجر على لسانها روائع الأدب كما هو مشهور عنها ؛ بل أجرى رامى  
على لسانها الغناء ! ! وجعل ابن زيدون يسمعها تغنى فيتعلق قلبه بها . . .  
القصة نفسها .

( ١ ) ولكن الشاعر اليوم في مجالسه ينسب إليها ذبوع شعره فالذين  
يطالعون الدواوين المطبوعة آلاف ولكن الذين يرددون وراءها الأغاني ويسمعونها  
ملايين . . .

لقد كانت ( ثورة نفس ) . . .

ويتساءل كثيرون ؛ لماذا لم يكتب للمسرح الغنائى غير مسرحية «غرام الشعراء» ؟ وأقول إنه لم يكتب للمسرح ، ولكنه فى الحقيقة كتب لنفسه . . . . كتب قصته هو من امتلائه بها . . . .

ويؤكد هذا طبيعة الحب فى المسرحية وأسبابه وملابساته .

ويؤكدده ورود كثير من أبياتها فى شعره لأم كلثوم .

حتى أوبريت « عابدة » التى اقتبسها من « فردى » كتبها من أجل أم كلثوم فى مرحلة تحمسها للسينما بعد أن كتب لها « وداد » ، و « دنانير » .

وبعد ؛ فأين الحقيقة فى هذا كله ؛ ولعل الشاعر صادف مثل هذا السؤال كثيراً فى طريقه ؛ فهو يقول :

أرادونى على أنى أبوح	وهل يتكلم القلب الجريح
وماذا يبتغون فى فؤادى	جوى أفضى به الدمع الفصيح
نعم أهوى ولا أخفى غرامى	ومن شرف الهوى أنى صريح
وأما إن سئلت هل اصطفتنى	سكت فما استرحت وما أريح
ومن لى أن أقول تعلقتنى	وقلب الغائيات مدى فسيح
تلاقينى فتخلص بى نجياً	والمس حبها فيما يلوح
وتزدحم القلوب على هواها	فتنكرنى ولى كبد قريح <sup>(١)</sup>

أرأيت كيف تداوره ، وتطوح به شداً وجذباً ، جزراً ومداً ؟ .

كان الله للمحبين ! .

وهو يفهم صاحبه جيداً ، ويعرف أنها بطبيعة الأنثى المركبة فيها تهفو إلى الحب وتتمنى الحبيب ، ولكنها فى بلبال ، كيف تختار ومتى تستوثق ؟ ويزيد فى حيرتها ازدحام القلوب عليها ازدحاماً تفضل فيه الحقائق ويسهل خداع الزيوف ، كل هذا يعضى خفيفاً مسرعاً على الرغم

( ١ ) قصيدة « بن الصراحة والكتمان » ص ٨١ .

مما يختلس من ريق الشباب ونضارة الصبا . ويحس رامى ويدرك ويقول  
بالزجل والشعر .

فضلت أعيش بقلوب الناس وكل عاشق قلبي معاه  
شربوا الهوى وفاتوا لى الكاس من غير نديم . أشرب وياه

. . .

أفنت عمرك فى طلاب حبيب وأمضى الصبا وهواك غير قريب  
حاولته فى كل نفس شاقها من فيك لحن العشق والتشبيب  
فهفت كما تهفو الحمام شفقها طول المطار إلى ظلال رطيب  
حتى إذا خفت إليك وحومت وجدت ربيع القلب غير خصيب (١)

ويعود فيسائلها تحت ستار « هوى الغانيات » :

كيف مرت على هواك القلوب فتحيرت من يكون الحبيب  
كلما شاق ناظريك جمال أو هفا فى سماك روح غريب  
سكنت نفسك الحزينة وارتاحت وميلُ النفوس حيث تطيب (٢)

وهى على هذا تضمن وتسخو . . . أو هذا ما تفهمه من قول رامى : .  
ويخادع العشاق أنفسهم بما قد أملوا من وعدك المكذوب  
وزعت قلبك بينهم حتى غدت نفسى تسائل أين منه نصيبى  
ثم انشيت تجمعين شتاته هيهات من قوم بغير قلوب

. . . خطوط كبيرة من تاريخ حياة . . .

ولقد أهنت مداعى فسفحتها وأطلت فيك تغزلى ونسبى  
وتخذت منك لحاظرى أنشودة وقعتها بتنهدى ونحيبى

( ١ ) قصيدة « القلب الضائع » ص ٨٥ .

( ٢ ) قصيدة « هوى الغانيات » ص ٨٦ .

فإذا بسمعك صمّ عن لحن الهوى وإذا بقلبك لا يحس وجيبي<sup>(١)</sup>

إنه لوم المحب وقسوة الحنان المهذور . . . ثم يصف الشاعر حالة كتبها فأحسنها ولسها :

وإذا بقلبي بعد أن حمل الضنى لم تبق منه مضاضة التجريب

لقد انتهى به المطاف إلى اليأس ، وهو إحدى الراحتين . . . وأنا أعرف عن يقين أن « رامى » شاعر الشباب يسمعها في شيخوخته ويضطرب لصوتها وينتشى ، من إعجاب . . . أما الرفرفة وأما الغيرة وأما الغضب والثورة وسواها من تهاويل الشباب فقد استحالت إلى ذكرى هادئة اللون قد تخايله على إثر سؤال فتسوقه إلى الحديث ، وقد يبعث مراثيها في النفس تودد عارض أو ندم أسوان . . . وهو ، كما حدثتك عنه وحدثك شعره ، ولوع باقتناص مادة جديدة لشعره ، وهو فوق هذا كله إنسان عاطفي فيه حسنة وحنين ، ومن ثم لا يدع التودد أو الندم أو غيرهما يمران بدون أن يستلهمهما ويستلهم الماضي معهما . . . وقد يلهمه هذا كله في حرارة ووقدة حس تسفر عن مثل قطعته « جددت حبك لي » المتوهجة . . . ولكن ثق أن هذا كله إلهام ساعته ، ووحى لحظته . . . ثم يقف عند عتبة الشعر ولا يتخطاها . . . الزمن وحده هو الذي يخطو . . . ويسير . . . ويجرى ، ولكن أم كلثوم تظل على الأيام ، في تاريخ الغناء ، كما هي في شعر رامى :

فنهى قمرية تغنت على الفرع	ولمّا تهمّ بالظيران
قد براها الخلاق من خفة الظل	ومن رقّة النسيم الوانى
وتراً مطرب الحنين أغنيا	ولهاة كالحالص الرنان
ترسل الشعر منطلقاً عربياً	بين الآى واضح التبيان

تتناغى الألفاظ فيه من النطق  
فإذا صورة تجلت إلى العين  
سليماً وتستبين المعاني  
وغابت في مستقر الجنان<sup>(١)</sup>

وبمثل هذا يصف كل منصف صوت أم كلثوم وأداءها بدون أن  
يلحق الوصف مبالغة أو إغراق . . . ويصفها رامى عند الغناء ، فيقول :  
وقفت ترسل الغناء فأنت  
وشجاها ما رجعت من نسبي  
فاحتواها الشجا وراحت تغني  
يا هنأى شقيت بالمجر حتى  
يا شقائى نعمتُ بالقربِ حتى  
بلسانى ونوّحت في غناها  
وشجائى من صوتها ما شجاها  
« يا هناه » في هجرها ورضاها  
وصلتني وزال عني جفاها  
حرمته الأيسام طيباً لقاها<sup>(٢)</sup>

طريف من الشاعر الالتفات في البيت الرابع ودلالته على أنه إنما  
يغنى لنفسه دائماً في شعر غنائها ، فهو إما يصفها ، أو يصف حاله ،  
والوصف في الحالين متصل به . . .

وجميل من الشاعر المقابلة الرقيقة في البيتين الأخيرين بين الهناء  
والشقاء ، والشقاء والنعيم . . . ومما يزيد في نعومة هذه المقابلة وشجاها  
وقوعها بعد « يا هناه في هجرها ورضاها » . . .

ولكن يبدو أن الطائر لا يقوى على التحليق دواماً ، فإن اللفات  
التي أشرت إليها لا تحجب عنا التهافت النفسى في مثل قوله :

ويا أوليك من دمعى وسهدى  
أقدمه وبنى خجل عساتى  
وأرسل في غرامك من أنبى  
أظن ضننت بالشىء الثمين

هل الدمع والسهد والأين شرط لازم في الحب ؟ وبخاصة من شاعر  
ينشد « الإلهام » وحده من وراء هواه أو هكذا يقول ! . . .

(١) قصيدة « إلى أم كلثوم » ص ٩٣ .

(٢) قصيدة « إليها » ص ٩٥ .

وفيم الحجل بعد هذا كله ؟ وما الشيء الثمين إذا كان الدمع والسهد  
والأنين رخيصاً في نظر الرجل ؟ وما كنه النفاسة في رأى الرجولة المعتدة ؟  
هل هان الرجل في الشاعر ؟ وفيم التساؤل وهو نفسه يعترف بهذا  
المعنى :

فهل يرضيك ما ألتى فأرضى نصيبى فيك من ذل وهون  
وأطلب في الشقاء عزاء نفسى بما قدمت من عطف ولين  
وليسم الذل والهوان والليونة ؟ . . . لا أحسب أن هذا  
يرضى المرأة مهما لاقى الرجل من هذه الأحاسيس الناعمة المسرفة في  
النعومة . . . إن المرأة خاصة إذا نشأت في الريف تنشده الرجولة القوية  
المستبدة ، على تلك المتخاذلة المستضعفة إذا أعوز الأمر . إن القوة  
معبودة كالبطولة عند الناس وبخاصة المرأة القوية الشخصية .

ولست أدري لماذا يحضرنى هنا خاطر . . . انصراف أم كلثوم عن  
الرجل في الشاعر حين فرضت عليها مهنتها وذكائها معاً أن تشخذ  
شاعريته . . .

وبعد . . . ترى هل انتهت القصة ؟ وكيف يترك الناس قصة حب  
بدون أن يبدوا رأيهم فيها ويطوف فضولهم بها ؟ فهم مثلاً يتساءلون من  
منهما رفع الآخر ؟

عندى أنهما متقاربان ؛ الشاعر سما بفنها على جناحى خياله ومعانيه ،  
رقرق لها اللفظ ووشى لها القصيد . . . هو الذى هذب وصقل الأغاني .  
ولكنها أيضاً كانت وسيلته إلى الشهرة العريضة لا سيما بعد أن أصبحت  
سيدة الغناء ، وزينة المحافل . . .

حقاً عرفه الناس قبلها شاعراً طلع عليهم بدواوين ثلاثة من شعره  
. . . ولكن شهرته استفاضت بلا مرأى منذ أخذ يؤلف الأغاني لها . . .  
حتى ليعزو ناقد إلى هذا التطور في حياته ، صفاء شعره الحديث . بل إن

الدور المميز الذي أخذته في الأغنية المصرية ودخل به تاريخها أكبر في رأي من دوره شاعراً! . فبرى الأستاذ دريني خشة أن شعره الأخير « أجد ديباجة وأرق نسجاً ، وأحفل بالموسيقا الداخلية من جميع شعره القديم الذي شملته دواوينه الثلاثة ، ونحن نعني بالموسيقا الداخلية ذلك التوافق الصوتي الجميل الخلاب ، الذي يتأوج مع انفعالات الشاعر ، والذي اكتسبه رامى بلا شك من طول اختلاطه بالموسيقيين والملحنين والمطربين » (١) .

ويقول آخر : « إن رامى له فضل على " أم كلثوم " فقد نفخ في صوتها من روحه وحلاوة شعره ما جعلها في مقدمة اللوائى تزعمن الغناء في أنحاء الشرق العربى كافة » .

ويقول ثالث : « وما يؤخذ على شاعرنا رامى أنه قتل نفسه في سبيل المرأة ؛ فهو شديد الحب لها ، ولذلك فهو كثير الشك والقلق ، وكان خيراً له وللشعر وللأدب أن يفارق وجه هذه المرأة وينطلق إلى غيرها فالحياة "سينما" فيها كثير من المواد التى تلهب خيال الأديب وتوسع أفق تصوره . » (٢)

(١) السيد محمد أمين حسونة من مقال « أعلام المدرسة الحديثة » في مجلة الحديث التى تصدر في حلب ويقول الأستاذ يونس القاضى معاصر ظهور أم كلثوم : من قصائد رامى التى ملأت الصحف والمجلات عرف الناس أم كلثوم .. ومن طقة طيق رامى وأدواره التى كان ينظمها لها خصيصاً اشتهرت أم كلثوم .

ومن تلحين الدكتور صبرى لكل هذه الأدوار والعلاقات وغيرها صعدت أم كلثوم سلم الشهرة الواسعة والمكانة التى لاقدانها فيها مغنية الآن . من اليمين تتوكأ على شاعر مشهور ، ومن اليسار تستند على ملحن معروف . وفى هذا ومن هذا طارت أم كلثوم وحلقت في سماء المجد الفنى بجناحين قويين من رامى وصبرى .

( العدد ٢٦ من المسرح الصادر في ١٧/٥/١٩٢٦ ص ١٥ )

( ٢ ) عدد فلسطين الصادر في ٢٣ أيلول سنة ١٩٣٤ .

وفي رأبي أن الشاعر عينه مفتوحة على الكون يتأمله ويستوحيه حتى  
ليخيل إليه أن كل شيء فيه بحدته حديثاً أو يهمس في أذنه سرّاً من  
أسراره ومعنى من معانيه . . . فهو يستلهم مجلى من مجالى الطبيعة أو  
يستشعر خلجة من خلجات النفس ، أو يستقرئ منظراً في فيلم ، أو  
يسمع مغنياً في شارع ، أو قصة من صديق لها من ذكرياته نظائر  
فتحرك شجنه .

قالت له زوجته<sup>(١)</sup> «إذات مساء وهي ترنو لى ابنهما محمد « النوم  
يلعب فى عينه » فبرقت فى ذهنه لساعته مطلع أغنية « النوم » وهو  
« النوم يداعب عيون حبيبي » ، ثم تطورت الأغنية والفكرة فيها ،  
وتسلسلت بما يبعد بها عن الحبيب الصغير البرىء . . . عن الطفل محمد  
إلى . . . الحبيب . . . حبيب الخيال أو حبيب الحب . . . من  
يتصور ؟

ومن الناس من يقول<sup>(٢)</sup> : « . . . لو أن رابى لم يتجه إلى الأغاني ،  
ولم يعرف أم كلثوم ويكلف بها هذا الكلف كله ، لكان الشاعر المصرى  
فى هذا الجيل غير منازع ، ولتوالى دواوينه تعمير المكتبة العربية وتغمرها  
بنفحات تطفئ على الكثير من نتاج الخالدين . . . ولكنه قدر » .  
ولكن الشاعر إذ تناقشه فى هذا القول يقول لك : إنه لا يعتقد فى  
الإمارة . . . إن الشعراء كالفأكة لكل واحد لون . ويمضى فى الدفاع  
فيقول : إنه على إعجابه البالغ بشوقى كان لا يعجبه غزله ، ويحكى أنه  
كان يقول له : « غزلك لا يحرق » ا .

ويتصل بهذا قول الأستاذ درينى خشبة : « وأول ما يلفت النظر فى  
حياة رابى وإنتاجه الأدبى هو انصرافه العجيب المفاجئ عن قرص الشعر ،

(١) تزوج رابى سنة ١٩٣٥ .

(٢) الأستاذ صالح جودت من مقال (شاعر الشباب أحمد رابى) -

الجلال أبريل ١٩٥٣ .

واقْتصاره على توشية أغانيه المصرية الساحرة ، وذلك منذ أن دخلت في حياته "الآنسة" أم كلثوم !

...

وفي رأبي أن « رامي » أخذ دوراً محسوباً في الأغنية لا يقل شأنًا عن الشعر بعلمة ، وشعره بخاصة ، بل لعنه يزيد . . . فهو ، شاعراً ، يمتاز بالسلاسة لا بالفحولة . وهو ، شاعراً ، له نظراء ومنافسون كثيرون ، ولكنه في الأغنية مميّز متفرد الطابع والأسلوب ؛ لأن أغانيه - وسيوضح هذا عند دراستها في الفصول القادمة - لم تكن جوفاء ، فقد وفر لها قيماً فنية من حيث الصورة والتعبير جعلتها نقطة تحول وعلامة طريق .

الأدب نفسه استفاد من هذا التحول ، لأن الأغنية الرامية الرقيقة العفة أشاعت الحس الجمالي ، والجمال الفني ، وارتفعت بالذوق العام ونأت به عن الكلام الهابط .

ولأمر ما : هبطت الأغنية من جديد ، بعد أن رحلت أم كلثوم ، وانفض السامر شاعراً ومجيباً وحبيباً .

رحل الصوت الدفاق الألاق ، ونضب الوحي بعد أن غاب مصدره ، وتبدل كل شيء : العصر والناس والظروف .

وسمعا بعد ( ريق الحبيب ) و ( ليالي القمر ) أغنية عن النسيمة : تهبط السلم وتهبط معها قيم الفن والذوق ، وقصيدة عن الرذيلة تحملها رسالة ، ومع الأسف أمواج الأثير .

ولو كان هناك عقل يفكر ، وثقافة تختار ، وذوق يصطفى ، لما تبوق مغن بغير وعي ، أو أسف غناء بغير حساب :